زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: هيلكَا يناير
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع: 2018/7392
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

بنيامين

زهير أبو سعد

إهداء

القتلة و سفاكين الدماء بأسماء مستعارة ،

أقول لهم :

بأننا لا زلنا هنا على قيد الحرية ..

هَل سَتَتحمل مَا يَجري في هَذا العَالم ! ..

لا أعَتقَد بأنَك سَتُكمل مَا تَكتُبهُ المآسي هُنَا ..

أنتَ المُعَلق على كَمَاشَةِ السِين في كُلِ تَسويفٍ غَير آبهٍ بِكَ ، أنتَ المُضَرّمُ ببَقَايا تَقوى ليس لتقوى ! ، بل لخير مَا تَبقى من تَقوى ..

هَل رَأيتَ مَا فَعلتهُ بكَ الأيامُ !! ..

لا تَنتَظر سَيدي مَجيء أحَلامك اللولَبية ، إنَهَا بَقاياكَ أنتَ و حُطَامُكَ المَبتُور من كُل عَجلةِ سَيرٍ تَحطُ بثقَلكَ على سكَكِ الوَقتِ..

هَل تُريد أن تَتَرَصدَ الدمَاء المُتَقاطرة من تَحتِ مزاريبِ جلبَابكَ !، دَعهَا تَسيل و لا تَكتَرث إلى عَقارب السَاعة المُلتَهبة حَرباً ، و مَا يُفِيد تَجسسك على زَمَانٍ كُل من فيه يَعيشونَ على رَفَاهية القَتلِ شَرفاً .. ! ..

مُضرمٌ يا أنتَ ..

بوقَاحةِ من حَولكَ ..

ومُستَضعفٌ فَقط لأنَكَ أحد الفَصَائل التي يَستَقذرُهَا غَيرُكَ ، و مَهما تَجردتَ من طَبائعكَ ، إرضاءً لأهَوائهم فَأنت مُتهم فَقط لأنكَ أنتَ ..

بِتُ أكرهُ كَلمة : أنتَ ..

وبِتُ أسألُ نَفسِي و من يَكونون هُم ؟ ..

نَعم إنهُم أولئكَ الذينَ يُحجمونَ من قَدركَ ، لأنَكَ أنتَ الغَني عَنهُم وهُم الفُقَراء لكَ ، ودَائِماً سَتَتَقاذَفُكَ الإتهَامَات حتى لو كُنتَ أصلح من في الأرضِ ..

لن يُفيدكَ صلاحكَ و لا حَسَنَاتكَ حتى لَو أَشعلت لَهُم أصَابعَ يَديكَ ذَهباً ، لن يَرضَوا عنَكَ و لا عن قَومكَ لأنَكَ في عَقَائدهم أنتَ و تُلموذكَ و لحيتكَ و طَيلسَانكَ و قُبَعتكَ و معطَفكَ الكَالح بالسَواد مَنبُوذ حَتى نِهَايةِ الأزَلِ ..

مَن أنتَ يا سَيدي !؟ ..

ولمَا تَجلس فَوقَ فُوّهَة الضَبابِ !؟ ..

قِف على ما تَنَاسَبَ من أَوهَامكَ سيدي ، و لمَا كُل هَذهِ الدُموع ! ، هَل هنُاكَ مَا يُؤلمُكَ ؟ ، هَل أنتَ جَائع ! ، هَل حَدَثَ لأهَلكَ مكروه؟..

رَباه !! ..

إنتَظِر قَليلاً ، لا تقُم من مَكَانكَ ، سَوف أُحضِرُ لَكَ مَاءً ، و قَبل أنَ أُفتش لهُ عن مَاءٍ يَروي ظمأهُ ، كَانت هناك عَجوز فَوقَ رَأسي تُراقبُ مَا أفعلهُ مع هَذا المُسِن ، ظَننتُ أنهَا زَوجتهُ ..

ـ هَل تَعرف هَذا الرَجُل أيُهَا الفَتَى !؟ ..

كَانَ في وَجهِهَا مَسوح سُمٍ لا أعرفُ مَصَدرَ فَوضَاهُ ، و تَحتَ لسَانهَا سَوطاً منَ القَسوة أطول من طَريقي الذِي قَطعتهُ شَقاءً من لُندُن ..

ـ كَلا ، لا أعرفهُ ، و لكنهُ مُنهَكٌ منَ التَعب ..

ضَحكت بتهكُمٍ ، و بَينَ أديمِ عَينَيهَا سُخرية لا يُضَاهِهَا أية فضاضة في هَذا العَالم برُمتهِ :

ـ أيُهَا الفَتى ، على مَا يَبدو بأنَكَ غَريب عن هَذهِ البِلاد ، و لا تَعرف مَا يَدورُ حَولَكَ من مُجرَياتِ للأُمورِ ..

نَعم لَقد نَسيت ، أنَا الصحفي آندرو ، أتَيتُ من صَحيفة لِيدَكِيست لتَغطية الأحداث التي تَدورُ في العَاصمة فيينَا ، هَذهِ أول مُهمة صَحفية لي خَارجَ لُندُن ، لَقد قَطعتُ آلاف منَ الأمَيالِ حتى أصلَ إلى هُنَا بأمرٍ من مُديرِ الصَحيفة التي تَشغَلُ المَملكَة المُتَحدة في العَاصمة لُندُن ..

أنَا خَائِف جداً ، مَا هَذا الرعب الذي يَهزُ شَمَالَ أوروبا ! ، إنَ الحَواجزَ التي قَطعتهَا بعَدَد هَزاتِ الرُعبِ التي وَصَلت إلى مُخَيخ عظَامي ..

لا زَالت العَجوز تُراقبُني ، و تَرمُقُني بينَ عَينيهَا أن إرَحل من هُنَا قَبل أن يَراكَ أحد و أنتَ تَتعَاطف مع هَذا الرجُل ..

إنسَانيتي لم تَسمح لي أن أتركَ هَذا المُسن مُلقاً على قَارعَةِ الطَريق بينمَا يَمشي بجَانبهِ النَاس و لا يُلقُونَ لهُ بالاً ..

سُمعَ من بَعِيد صَوت زَمجرةِ العَسكر و أحذيتهُم تَهزُّ القُلوب و تَقتَلع الأفئدة منَ الصُدور ، خَشيت عَليَّ العَجوز :

ـ بُني تَعَال معي أرَجوك ، و بَعدَ قَليل سَنعودُ مَعاً لهَذا الرَجُل ..

أمسكت بيدي تَدفعني لتركِ المُسنِّ أرضَاً ، و مَشيتُ مَعها خَلفَ أحدِ الجُدرانِ مُتَخفين ، و لَكن ممن !؟ ..

من العَسَكر ذَاتِ الأشرطة الحمراء برمزهَا الصَليبي المَعكوفِ ، كَانَ النَاسُ يَسيرونَ في الطُرُقاتِ غَير آبهينَ للرَجُلِ المُسنِّ ، و جَميع الآذَانِ قَد شُنِفت لصوتِ الظُلمِ الذِي يَسير على حَسبِ العَدِّ الثُنَائِي لنهيقِ الضَابِطِ الصَنديد ..

وَاحد .. إثنَان .. وَاحد .. إثنَان ..

وهَكَذا حَتى تَلاشَت آثَارهُم بينَ الأزقة، و إخفتى نُباحهُم بينَ الأصوات ، يا إلهي مَا هَذا الرُعب !!

تَركتُ السَيدة العَجوز ، و أسرعتُ إلى ذَاكَ الرَجُل المُسنّ ، إنهُ يَتنفس بصُعوبة ، إنهُ بِسنِّ جَدي على مَا يَبدو :

ـ هَيا أيُهَا السَيد ، أرجوك سَاعدني بالنُهوض ، أرجوك لا يُوجد وَقت ..

بَدأَ يتَحرك الرَجُل ، و عِندمَا أظهرَ لي وجههُ ، كانَ ذُو لِحَية كَثة بَيضاءَ أنقَى من هَذا العَالم المُتَعجرفِ بالعُهرِ ، و عِندمَا نَهَض سَقط من تَحت قُبعتهِ طيلاسَان لليَهود ..

يا رَباه ، مَا هَذا ! ..

أخذتُ الطَيلسَان و وَضعتُهُ في جيبي ، و عندمَا نَظَرَ إليَّ ظَهرت جَدائلهُ البيضَاء تَتَدلى من خِلالِ أُذُنيهِ ، كَانت عَينَاهُ زَرقَاوَان ، و وَجنتَاهُ بَهيتَان كَمُشمُشٍ ذَبلان ..

بَدأَ يَتَلمسُ حَولهُ ، و يَدُسُ بَيدَيهِ الأرض ، و كَأنهُ يَبحُث عن شَيء قَد فَقدهُ :

ـ هَل أستَطيعُ مُسَاعدَتكَ سَيدي ! ، مَا الذي تَبحثُ عنهُ !! ..

أُووه .. و أخيراً ابتسَم :

ـ عَن نَظارتي يَا بُني ..

بَدأت عَينَاي تَتَرصدُ المَسَاحَاتِ الفَارِغة التي حَولي ، عَلني أجدُ نَظارتهُ الطبية ، و أَخَيراً وَقفَ على قَدميهِ ، و ظَهرَ معطفهُ الأسَود الطَويل ، و بَانت الإشَارة التي يَضعهَا اليهود على ثيابهم مُرغَمينَ عن أنفهم ، ألا و هي النَجمة السُدَاسية .. إنهَا لتَدُلَ الجَزار على ذَبيحته ..

الإنسَانية ..

إنهَا محور المَحبة في هَذا العَالم ..

أُكتُشِف هَذا المحور ، عندمَا أُقصي مرضَى العَقائد المذهبية و القَبلية و العُنصرية ، إنهَا آفَة القَرن العشرين ألا و هي الذُنوب المُبللة بالقَسوة ..

كم من مُستَنقعٍ للدمَاء مشَى عَليه هؤلاء الجبابرة ، إنها الصفة الوحيدة التي تَتَوسدُ مَطَامعهُم ، صفة ديمومة الجَبروت ..

كُنتُ أظنُّ بأنَ هؤلاءِ جاؤوا لتَخليصِ البشرية من ماهيةِ المَوتِ ، و أحضَروا مَعَهُم حمَامهُم الأبيَض ليغرسوا بُذورَ السَلامِ على الأرضِ ..

مَاتت الأُمنيات في لَيلة إختلى فيهَا الثَعلب مع الخراف ، يَومَ كُنَا نُحدِّثُ النَاس عن يوم العَدلِ ، ذَاكَ الزَمن الذي لا نَعرفهُ إلا بالخَيال ..

للأسَف ، أكَلَ الثَعلبُ الخراف ، بيد أنَ رَاعي الحِمى كَانَ نَائماً على أحلامهِ العَادلة ، خَالعاً أحذَية الخَوفِ و مُتَجرداً من ثيابِ الرُعبِ ..

إستَيقظَ رَاعينَا على مَرأىً من الدمَاءِ ..

و نَحنُ النَائِمونَ على أحَلامنَا الصغيرة ، كَذلكَ كَانَ لنَا أمَانِي لم تَنضُج بَعد .. أن نَعيشَ مثَلنا و مثل بَقيةِ الأسَماكِ في نَهرِ الدَانوبِ ، لا نُريد أن نَموتَ على مَشَانقِ الرأي و الدين ..

نُرِيد أن نُدفنَ و في قُلوبنَا حُرية الإعتقادِ و الفكر ..

ـ قُم سَيدي ..

فَأنتَ في الرُبعِ الخَالي من كَوكبٍ لا يَعترفُ بكَ كَإنسَان ، بل كَبَقايا حُطَامٍ أو عظَامٍ لكَلابِهم ..

ـ من أين أنتَ يا بُنِي ! ..

كَانَ لا زَال يَلهث بشدة مما جَرى معهُ أو من أحدَاثٍ لم أرَها أو أعرفهَا :

ـ سَوفَ أقولُ لكَ لاحقاً سيدي .. هَلا سَاعدَتني و قُلتَ لي أينَ هي نَظارتُكَ !؟ ..

بَدأ يَبحثُ عنهَا و يَتَلمس الأرض ، و أنَا أنظُرُ حَولهُ هُنَا و هُنَاك ، كَانَ الرَجلُ يَتَبسَم ، و كُنتُ مُعجباً جداً بقوتهِ ..

ـ هَا هي يا بُني .. لَقد وَجدتُهَا ..

كَانت تَحته مُباشَرة ، و لكن للأسَف :

ـ أووه سَيدي .. لَقد كُسِرت إحدى زُجَاجَاتِهَا ..

ضَحكَ الرَجُلُ بشدة :

ـ يَا بُني ولتُكسَر ، لَقد فَقدنا في هذهِ المدينة الكثير من الأحَبة ، لم أعُد أسَأل عن المُمتَلكات ..

مَسَحَ الزُجَاجة السَلِيمة لأحَدِ نَظَارَتهِ ، و رَتبَ هندَامهُ ، و أسدلَ جدَائلهُ البيضَاء على كَتفيهِ .. و وَضَع النَظَارات على وَجههِ ، فَلقد كَانَ بَديناً جِداً ، و لَكنَّهُ كَانَ وَسيماً و أنيقاً ، لَقد عَرفتُ ذَلِكَ من معَطفه الأسَود الطَويل و قُبعته الرُوسية ذَاتِ المَاركة المُرتَفعة الثَمن ، بدأتُ أقودهُ ، و كَانَ قَد وَضَعَ بثقله على كَتفي :

ـ إلى أينَ تَأخُذني يا بُني ! ..

بُني ، كم هذهِ الكَلمة تعني لي الكَثير ، كَان جَدي يقول لي إياهَا دَائماً عندمَا كُنتُ أتجهُ معهُ إلى بُغيته :

ـ إلى الفُندق ، أُريد أن أدعوَكَ في الفُندُق معِي كَي تَستَريح ، و بَعد ذَلكَ سَوف أجدُ لَكَ أولادكَ أو عَائلتكَ ..

عندمَا كَانَ يَضحك كُنتُ أشعر بأنهُ يسخرُ مني ، أعَادَ الضَحكَ مرة أُخرى ، و لَكن هَذهِ المَرة بشكلٍ غَريب :

ـ أنَا من لُندُن يا سَيدي ، بُعثتُ من إحدَى الصُحف الكُبرى لتَغطية تَطورات الأحدَاثِ من تَقدُم في أوروبا الشَرقية و خُصوصاً المَدينة المشَهورة فِيننَا ..

كَانَ يسعلُ العَجوز بشدة ، و كَانَ كُل من في الشَارع يَنظُرُ إلينَا ، و الجَميعُ يُحدقُ بي و كَأنَني قَد إرتَكبتُ جريمة :

ـ بُني دَعني هُنَا ، لا أُريد أن أُسَبب لكَ المَتَاعب مَعي ، فَالنَاسُ هنَا يَنظُرونَ إليكَ نظرةَ إزدراء ..

تَعجبتُ من كَلامهِ ، و قُلتُ بنفسي من هَذا الرَجلُ ، و لمَا الناس تَنظُرُ إلينَا هَذهِ النَظرة الحَقيرة !؟ ..

ـ لن أَترُكَكَ سَيدي ، سَوفَ تَذهب معي إلى الفُندُق كمَا إتفَقنا ..

في البداية رفضَ ، و لَكنهُ قَبل الدَعوة مُقَابل كوباً من القَهوة ثَم العَودة إلى مَخلده ، كَانت مدينة فِيينَا لَهَا لحَنهَا الذَاكن ، و وترهَا الضَبابي ، و أُعزوفتهَا الحَزينة ، لا أعرف لمَا هَذا البَرد القاسي الذِي لَحقَ بِقلوبِ بَني البشَر !! ..

شَيء من السَماءِ بدأ يَتسَاقط على أحلامنا .. إنهُ بداية الشتَاء ، إنهَا تُلوج بداية السَنة ..

وَصَلتُ إلى الفُندق ، فتحت واجهات الفُندق أبوابها ، شَاهدتُ على وَجههِ شَيئاً من الخَوفِ و عندمَا أجلسَتُ السَيد العَجوز على أحدِ الكَنَبِ في صَالةِ الإستقبال ، ذَهبتُ لأُحضِر مِفتاح غُرفتِي من العَامِل الذِي نَأتمنهُ على غُرفنَا :

ـ عُمتَ مَسَاءً سَيدي آندرو .. على مَا يَبدو أنَّ معكَ شَخص غَير مُرحبٍ بهِ هنُا ..

صَرختُ في وَجههِ :

ـ وَيحك ، إنهُ ضَيفي أرَجوكَ إلتَزم حُدودَ أدَبك ..

إرَتفَع صَوتي في المَمرِ ، و جَميع من في الفُندق يَنظُرونَ إلى شجارنَا :

ـ مَا الأمر ، مَاذا يَجري !؟ ..

إنهُ صَاحب الفندق ..

ـ إنهُ هَذا المُوظَف قَليل الأدب ، بحَاجة إلى تَربية ، إنهُ لا يَحترم الزَبائن ، و لا يَحترم الضيوف !! ..

إبتَلع المُوظَف مَا بَقي من قُوة في حَلقهِ :

ـ أرجوكَ سَيد آندرو ، أنَا سَوفَ أُصلح الأمر ، لا تَقلق و أنَا بالنيابة عني و عن هَذا المُوَظف و عن الكَادرِ العَامل في الفُندق أعتذر لمَا جَرى ..

إنَّ لُطفَ صَاحبِ الفُندق جَلعني أهدئ من رَوعي ، و أشرحُ لهُ مَا الذي جَرى برَوية :

ـ وَجدتُ رَجُلاً مُسناً في الطَريق مَرمياً على قَارعة الأرصفة ، و لا أحد يلتفتُ إليهِ ، فأحببتُ أن أرحبَ بهِ في مَكَاني في الفُندق هُنَا ، و أنَا قَد دَفعتُ الأُجرة ..

إلتَفت صَاحب الفُندق إلى الرَجُل المُسن الذي يَجلسُ على أحدِ الكَنبِ ، و كَأنهُ يَعرفهُ ، و لكنه كان يُدقق النَظَر جيداً عليه حتى يتَأكَد :

ـ أووووه .. سَيدي .. إنهُ الحَاخام بنيامين ..

لَقد سَمعتُ بهِ سَابقاً ، و لَكن أريد أن أتَأكد !! ..

بنيامين ..

حَاخام اليهود في فيينا ..

الرَجُل اللطيف ، صَاحب الإبتسَامة الرقيقة ..

جَميع من في المَدينة يُكنُّ لَهُ كُل الإحترام ، يُطلقُ عَليهِ مُحبيهِ :

برسولِ الحَمَامِ ..

لأنَ حَمام المدينة العَتيقة يُحبُ الإلتفاف حَولهُ ، هُوَ الذِي يَحملُ أكياس القمحِ و الذرة و يُسَابقُ الصَباح في كُلِ بُرهَة فَجرٍ ، يَقفُ على كُهُولتهِ عَارياً من كُلِ ضَعفٍ ، ينَحني بقواهُ للنُور ، و تَتَشَابَكُ يَداهُ في كل حَضرةِ إنبثَاقِ شمس ، تاركَاً للنَدى تَراتيل حُب و سَلام لهَذا العَالم ..

إنهَا الصَلاة في رَحابة الحُبِ ..

يُصَليها كَي تَخلُدَ الفتن على كَوكبٍ لا يعتَرفُ بكَ سِوى حَيوان .. نَعم حَيوان .. و لكنها صفة الطَبيعة ، إنَ الحَيوانَات على الأقَل أخفُ خُطورة من بَني البَشَر ، لأنَ صفة الإفتراسِ عندهُم .. صِفة آنية و مَحدودة ، أمَا البَشَر ففي تَطور و لكَن إلى الشرِ ..

هُنَا الحُبُ في قَلبِ هَذا الرَجُل ..

الذِي يَضمُّ بقاياهُ على مَذبحِ الحَياة ، كُل خُيوط الشَمسِ تَتَرقبُ صَلاتَهُ ، جَمِيع الحَمَامِ و العَصَافير حَولهُ تُرَفرفُ لصَدى تَراتيله ،

سَعيدة الحَياة بخَطواتِهِ ، و لَكَأنهُ جُزء لا يَتَجزأ من هَذهِ المَدِينة ، إنهُ أحد حضَارتهَا و تُراثهَا و مَاضيهَا و مُستَقبلهَا ..

صَاحب الثَروة الضَخمة .. التي أنعَشَ بِهَا المَدِينة الكَبير ة و المُدن التي حَولهَا ، لا تَسأل كم من مَعملٍ لَديهِ أو عَقَارٍ أو أموالٍ !! ..

الرَجُل الذِي لا يُظلمُ في ممَلكتهِ أحد ..

كَيفَ لكَ أن تُظَلم ، أو يُسلب حَقُكَ ، و هُوَ الذِي يُشبعُ الحَمَامَ حُباً و عشقاً في كُلِ صَباحٍ و مسَاء ..

يُمسكُ بقَبضَتهِ حَبات القَمحِ و الذُرة المَخلوطة ، و يُلقِي بِهَا في الشَوارعِ و الأزِقة قَبل خُروج النَاس إلى أعمالهم ..

كُلّ الحَمَامِ يتنبأ بقدومهِ ، يَزفونُهُ بتغريدَاتهم ..

مَا أبهَاهُ من رَجُل و مَا أقدسَهُ من حَمَام ..

إنهُ السَيد الكَبير : بنيامين روزنفيلد ..

إستمر صَاحب المَقهى بمُراقبةِ من يَكون ذَاكَ الرَجُل حَتى اكتَشَف أنهَ السَيد : بنيامين ..

أسرعَ بالجَري نَحوهُ حَتى رَآهُ عن قُرب .. أمسكَ بيدهِ مُحَاولاً تَقبيلهَا ، و لكَن تُولدُ صفَة التَواضُعِ معَ الرجَال ، سَحَب السَيد يَدهُ بقوة :

و نَظَرَ إلى صَاحبِ الفُندق ، كَأنهُ يَعرفه جَيداً :

ـ هَل أنت نيكولا ! ..

سُرَّ صَاحب الفُنْدُق لأنَ السَيد بنيامين عَرفهُ :

ـ نَعم سَيدي هَذا أنَا نيكولا ، لَقد سُررتُ لأنَك هُنَا في فُندُقي ، مَا الذي جَرى مَعك حتى تَحطمت نَظَارتُكَ ! ، سَوف أرسلُ لإصَلاحهَا فَوراً ..

أمسَك السَيد بنيامين نَظارتهُ و بدأ يَمسح مَا تَبقى من زُجاجهَا بردَائهِ :

ـ شُكراً لكَ نيكولا ، أنتَ رجل طَيب جداً ..

إبتسمَ نيكولا ، و أشَرق وَجههُ لهَذا الإطراء الذي أراهُ شَيئا عَاديا :

ـ بكُل سُرور سَيدي ، هَذا وَاجبي ، سَوف أُحضرُ لكَ القَهوة ، و أنَا أعتَذر على تَصرُف عَامل الفُندق مَعك ، و سَوف أقوم بِطردهِ حَالاً ...

غَضب بنيامين من هَذا القرار :

ـ لا أرجوك سَيد نيكولا لا تَطردهُ ، فَهو يَقوم بِمَا تُملِيهِ عليهِ حُكومته النَازية ..

إذاً إنهَا الفتنة وَصلت إلى هُنَا ، إلى عَاصمة المُوسيقى ، أيُعَقل أن تُبدل أوتَار الحُب بخُيوط الكَراهِية ! ، أيُعَقل أن تُسَحب نُوتات السَلام و تُزرع مَكَانها الذبح و التشرد ..

ـ تَفَضل سَيدي ، هَذا فُنجان القَهوة الخَالي من السُكر كمَا تُحبهُا .. على مَا يَبدو أنَّ هُنَاك من النَازِيين تَعرضوا لكَ في طَريقكَ ، أليسَ كَذلكَ سَيدي !! ..

أطرقَ السَيد بنيامين رَأسَهُ ، و حَاول لملمة وَجعهُ :

ـ نَعم يا نيكولا ، للأسَف لَقد أُشبعتُ ضَرباً في الطَريق من قبل فتية لا أعرفهُم ..

ـ أووه سَيدي يا لوقاحَتهم ، أنَا آسف لمَا حَدثَ لكَ ..

بدأ السَيد بنيامين يَحتسي القَهوة على مَهلٍ :

ـ لا تَقلق نيكولا ، لَقد أرسَل اللهُ لي هَذا الشَاب الغريب عن هذهِ المدينة ، و سَاعدني بالقيامِ ، و أحضَرني إلى هُنا ..

إلتفَت نيكولا إليَّ ، مُوجهاً بمَلامحه رسَالات شُكرٍ :

ـ أشكُرك أيهُا الفتى على مُسَاعَدتكَ للسيد بنيامين ..

حَاولتُ أن أتهَرب من هَذا الإطراء في الشُكر :

ـ لا أبداً إنهُ واجِبي ..

أمسكني صَاحب الفُندُق جَانباً ، و مَدَ بفمهِ نَحوَ أُذني مَحَاولاً أن يَهمسَ بها :

ـ هَل رَآكَ أحد و أنت تُحضِر هَذا الرَجُل إلى هُنَا !

لقد دُهشتُ لسؤاله الغَير منطقي !! :

ـ لا أبداً كانَ النَاسُ مُجتمعين حَول العُروض العَسكرية التي تَهزُ المَدينة ..

أخَذَ نِيكولا نَفساً عميقاً :

ـ حَسنَاً عَزَيزي هَذا الرَجُل حَاخام اليَهود في هَذهِ المَدينة ، و هُوَ رَجُل مُهدد لأنَ العرق اليَهودِي غَير مَرغوُب بهِ هُنَا و لا حتى في أُوروبا ، و نَحنُ كمَا تَرى على أبوابِ حَربٍ ، و اليَهود هُنَا أغلبهم سِيقوا إلى مُعسكراتِ الخَدمة الإلزَامِية ، فيمَا تُعرف بمُعسكراتِ المَوتِ ..

كُنتُ مُندهش لهذهِ الإعترافات التي كانت تَخرجُ من فَم نيكولا :

ـ و مَاذا سَمعتَ أيضَاً !! ..

سُرَّ نيكولا لأنهُ ظَنَّ أنَني مُهتم لحديثهِ :

ـ لَقد سَمعتُ بِأنَ اليَهود عندمَا يُسَاقونَ إلى تلكَ المُعسكرات يتلقونَ مُعاملَة سَيئة جداً ، و أيضَاً سَمعتُ بِأنَ النَازيين قَد نَصَبوا لَهُم فيمَا يُعرف بالمحَارق ، كَي يَتخلصوا من النَسلِ اليَهودي ..

لَقد صُعقتُ عندما سَمعتُ بهذه الفاجعة و تَعجبتُ من كَمية الحقدِ التي صُبت على النَسل اليَهودي :

ـ و مَتى حَدَثَ هَذا الشَيء ..

عَرفَ نيكولا أنَني شَخص غَريب عن هَذهِ البلاد ، فَراح يَسألني :

ـ أنتَ من أين أيهُا الفَتى !؟ ..

لُندُن ..

ـ نَعم أنَا من لُندُن ..

أطرقَ السيد نيكولا رأسَهُ و بدأ يهلوس و يهذي و يتحدث مع نفسه:

ـ حَسناً ، أنَا أعتذر عن هذا السُؤال ، أنتَ لما قَدمتَ إلى هُنَا ؟ ..

أعَطيتُهُ طَابعَ الدَهشة ، و لَكنهُ هَز برأسهِ أنهُ يُريد الإجابة :

ـ أنَا هُنَا صحفي ، أتَيتُ لتَغطية الأحدَاث ..

عادَ السَيد نيكولا إلى العجوز بنيامين :

ـ أنَا سَوف أجَعل لَكَ غُرفة في فُندُقي سراً ، و على مسؤلِيتي ..

تَنحنَح بنيامين ، جَاعلاً بينهُ و بينَ الكلامِ مسَافة من الصمتِ :

ـ حسنَاً سَيد نيكولا ، أنَا لم آتِ إلى هُنَا لكي أضع في عُنقك مَشاكل أنتَ بغنى عنها ، سوفَ أذَهب الآن ..

جُنَّ نيكولا لسوء الفَهم ، مع أنهُ كانَ قَاصداً توجيه هذهِ الكلمَات إلى السَيد بنيامين :

ـ المعذرة سيدي ، أنتَ لم تَفهم قَصدي ..

قطعَ بنيامين إحراج نيكولا :

ـ سَيد نيكولا أنتَ و أنَا و جميع البشَر هُنا نعلم بأنَنَا مُستهدفون بسببِ التمييزِ العرقِي ، فَلا طَاقة لكَ بالتستُر عليَّ و خُصوصاً هُنَا

في هذهِ المَدينة التي تَحوي بَينَ طَياتهَا مئاتٍ من الأجندة الإستخباراتية .. قُل لي يا سيد نيكولا : هَل أنتَ في مأمنٍ من العُمال الذين يعملونَ في الفُندُق !! ، طبعاً إن حدثَ لي مكروه لن تجرؤ و تسأل من هُوَ الشخص الذي وشَى عني ! ، هذا إن لم يَحدُث لكَ ما سَيحدث معي ..

أنَا تَدخَلت بسُرعة ، أُريد أن أُوقف هَذا التَوتُر الذي جرى بينَهُما ، كيف لهؤلاءِ البَشَرِ أن يبقوا في حواراتهِم الساخنة على هَذا الحدِ من التَوتُرِ و الحَرارَة !! :

ـ سيد نِيكولا ، سيد بنيامين ، أنَا لدي عرض بَسيط ، أرجو من السيد بنيامين أن تقبل مني هذا العَرض ، سوف تكون معي في غُرفتي و في ضيافتي حتى نَجد حَلاً لهذهِ المُعضلة ..

إبتسمَ بنيامين ، و لكنَ هذهِ المَلامح فيهَا من ملحِ اليأسِ مَا يكفي للقَضاءِ على هذهِ القَارة :

ـ بُني أنَا مَدين لَكَ لتقديم المُسَاعَدة ، و هَذا الشَيء بالنسبة لي معروف لن يُمحى من جدارِ الذَاكرة ، و أنَا سَوف أقبلُ عرضكَ هَذا ..

صُدمَ السَيد نيكولا ، لأنهُ لم يُفلح في عَرضِهِ الذِي قَدمهُ للسَيد بنيامين ، بينمَا قَبل عرض الصحفي كَافين ..

كان السَيد بنيامين مسروراً جداً ، و لَكن كُلَ الوَقتِ يُراقِبُ النَافِذة التي أمَامهُ ، فَتارة يَضَعُ يدهُ في جَيبهِ و تَارة يُخرجهَا ..

كَانت الأجواء أقرب إلى الغُروب ، و لكنَني تَركتُهُ على مزاجهِ و أنَا أنتَظرهُ قَبل أن يَصَعد مَعي إلى غُرفَتي .. أرادَ أن يَقوم ، فَنهضتُ لمُسَاعَدتهِ :

ـ هَل تُريد الصُعود مَعي إلى الغُرفة سيدي ..

إبتسمَ في وَجهي :

ـ بُني أرُيد الخُروج لأرى أولادي إنهُم جياع جداً ، أريد أن أُطعمهُم ..

شَعرتُ بأنَ الرَجُل أصَابهُ شَيء منَ الخرف :

ـ ولكن سيدي ..

قَاطعني مُباشَرة :

ـ لا تَقلق بُني إنهُم هُنالك خَلفَ النَافذة ينتَظرُونَني ، بإمكانكَ أن تَأتي مَعي إن أَحبَبت !..

نَظرتُ إلى النَافذة فَصُعقتُ منَ المَشهدِ كَانت مئاتٍ منَ الطُيور و العصافير تُرفرف و تُحلق و تَستَنجد و تُغرد ..

كَانت جُيوبه محشوة بالغَيبِ ، و كَانَ وَجههُ مُشَتعلاً بالحُبِ ، حَاخَام لهُ تَاريخ هَذهِ المَدينة و لَنَا في مَا يُخبئهُ أسرارنَا الروحَانية..

قُم سَيدي ..

و أقم مَا فينا ..

و أقم قيامةَ الحُبِ ..

و انثُر بُذُورَ أحلامنَا على مَسَاحَاتِ إيمَانكَ ، نَحنُ المُرهَفونَ بالخَيباتِ ، و أنتَ الذي جَعلتَنَا نَشعُر بالمَجدِ ، قُم سيد الحَمامِ و غَرد لنَا تَراتيلَكَ الخُمَاسية ، و افسَح لنَا عن مَا تَبخر من صَدى ..

صَدقني يا رسَولَ الحَمام ، بأنَ شَيبكَ أخجَلنَا ، و كَفكَ أشبعتنَا ، و دَربَكَ أمتَعنا ، هَل تَسمح للشَرايين المَائلة أن تَسيرَ على سكَكِ مَداكَ ..

أنتَ المَدى ..

و نَحنُ إرتجَاج الصَوتِ في فُسحة اللا مُنتَهى ، هَا قد إنتهَى حَبو الزَمَانِ على شفير أنفَاسكَ ، أُنفث لنَا غُبار طَلعِك في أحشَائنَا حَتى نَعودَ إلى إنسَانيتنَا ..

وَقفَ السَيد بنيامين ..

و بدأ يمشي تَاركاً وراءهُ ظله ..

فَتحَ باب الفُندُق ، و هَبطَ الحَمامُ تَحتَ قَدميهِ ، و لكَأنهَا زَوبعَة ثَلجية و هَبطت من السَمَاء ..

إنهُ الحمَام ..

يَعرفُ خُطَاهُ ..

يَتَتبعُ ظلهُ و حُبهُ ، و يَحبو إليهِ بتؤدة ..

بَدأ السيد بنيامين ينثُر البُذور التي في جيبه ، و الحَمامَ يَتكَاثَرُ من حَولهِ ، إنهَا اللوحة الأبَهى في هذهِ المدينة ، إنهُ الرَجُل الأقدَس في عَاصمة قُطعت كُل أوتَارهَا ، و كَسَرت جَميع كمنجَاتهَا ، و إستبدلت الحُب بِالحَرب ..

كَأنَ الحمَامَ يَفهمهُ ، يَشعُر به ، يَستغيث له ..

ـ هل شَبعتن يا حبيباتي ! ، هَيا هَذا يَكفي لهَذا المسَاء ، سَنلتَقي غداً..

هكذا أنهَى حَديثَهُ مَع الحَمام ، و لَملم شَتَات إبتسَامته و وَجه كَلامهُ إليَّ :

ـ هَيا بُني دَعنا نَدخُل ، إنَ البَردَ بدأ يَجتاحُ المَدينة بِلا حَياء و لا خَجل ، هَل يَا تُرى أبنَائي و أحفادِي يَعيشونَ بسلام !! ..

وَقع في ذهني أسئلة جمة ، من كَثرتهَا بَدأتُ أُرتبُ تَبعرثُرهَا في شَتَات الذهنِ ، هَل يَا تُرى أبنَاؤه هُنَا في هَذهِ المَدينة ! ، أم هَربوا

خَارجهَا إلى مُدنٍ أكثر أمَان ! ، أم هَل هُم على قَيد الحياة ! ، أم غَادرُوهَا !! ..

وَحدهَا الأمِكنة ..

لم تَتَعلم الخَيانة ، و لا مَلذَاتِ الغَدرِ ..

وَحدَهَا الأمِكنة ، لَو قَطعتَ هَذا الكَونُ شَقاءً أو سَعَادةً و و عُدتَ إليهَا ! ، لَوجدتهَا كَمَا هَيَ .. بِبَسَاطَتِهَا و بِعَبقَهَا و جَاذِبِيتهَا ..

أسَأل من طَوى بِهِم الزَمَانُ شَوطَاً من الحُبِ ، أستَجوب مَلامِحَهُم، اسَتخرج أشَبَاحَهُم ، و دنُوا من قُلوبِهِم ، و أستَمع إلى ذِكرايَاتِهِم ، فَكلُ مَا فِيهم من مَاضٍ مُقَيداً بِالأمكِنة ..

رَجُلاً يَفوقُ سِنهُ ألواحِ التَوابِيت ، وَقفَ على مَا تَبقى مِن أحَلامِهِ جَنباً لِجنبٍ مع الحَمَامِ لِمواجهةِ عَواصِفَ الظُلمِ التي تَدبُ دَبِيبهَا في البِلاد ..

ـ هَل تَدخُل سَيدي !! ..

إلتَفتَ إلِيَّ كَالذِي يَجرُ في حَقائِبهِ بُذورَ اليَأسِ ، لا شَيء يَشَي بِملاحِ هَذا الكَهل ، سِوى طَياتِ التَجَاعِيد تَحتَ جَنفِيهِ المُترَهِلتِين :

ـ كم أنتَ طَيبَ القَلبِ أيهُا الفَتى ..

أُصبُتُ بالإحِراجِ :

ـ شُكراً لَكَ سَيدي ، لم أصَنع شَيئاً !! ..

جَمَيلة تِلكَ الإبتِسَامة كِنِهَايَاتِ الرَبيعِ ، و حَنونَة الحُمرة التي تَعلو وَجنتِيهِ :

ـ هَل لي أن أُسَاعِدُكَ على المَشَي و صُعودِ السُلم يا سَيدي ..

صَمتَ الكَهلُ ، و شَعرتُ بِأنَنَي إرتَكبتُ ذَنباً :

ـ هَل تَرى هَذهِ المَدِينة ! .. كُنتُ أتمنى لو أنَ لهَا شِفاه و لِسَان ! ، لو نَطقت ! : لَسَمعتَ ألمهَا و ألمِ أهلِهَا الذِي شَتَتَهُم القَدرُ قَهراً ، أو رُبمَا ظُلمَاً ..

لم أفهم عمَّ كَانَ يَتحدث ، و لم أفهم القَاسِم المُشتَرك بِينَ ثَرثَرتهِ عن هَذهِ المَدينة ! ، و مُسَاعدَتِي لهُ ، و لَكنهُ شَاهدَ تَعجُبِي و إرتَباكِي العَفوي ، ضَحِكَ الكَهُل سَاخِراً من شَتَاتِ افكَارِي :

ـ لا عَليكَ بُني ، كُنتُ أُريد أن أُشعركُ بِتعبِ هَذا الكَهل الذِي تُخَاطِبهُ ، و مسَافاتِ المَسَير التي قَطعت منِا حُباً في هَذهِ المَدينة .. يا بُني هُنا يُذبح المَلل .. هُنَا تَموت قِصَصِ الحُزنِ .. و لَكنَ هَذا الزَمن لَيسَ بِزمَانِ هَذهِ المَدينو لا زَمنِ أهَلِهَا .. إنهُ زَمنِ سَلخِ الحُرية و إستَبدالِ الأبطَالِ بِمُجرمِين و وَضَعِ الأمَانة في مَكَانِهَا الخَطأ ..

كُنتُ مُستَمتِعَاً بِحَدِيثِهِ ، كَأنهُ يُلقِي عَليَّ قَصَيدة ، قُلتُ في نَفسِي و من عَلمهُ هَذا الكَلام ! ، حَتى إكتَشَفَ مَا يَدورُ في دَاخِلي :

ـ بَني إنَ حَديثَ الرَوحِ لا يَحتَاج إلى تَلقي ، إنَ مُعجَزةِ الحُبِ تَجعل منَ المَرءِ نَبياً مُرسَلاً منَ الفَضَاء ، إنَ مَا عَلينَا فِعَلهُ في هَذهِ

المَدينة كُلَ صَباح هُوَ الحُب فَقط .. أنتَ عَليكَ أن تَكونَ عَاشِقاً للأمِكنة للأشَخاصِ للأزمنة للمَقاعدِ الفَارِغة للمَحسوسَاتِ للفَضَائَاتِ و حَتى للَجمادَاتِ ، و سَوفَ يُدَلي عَليكَ هَواكَ مَا يَسَرُ الآخَرين ..

سُررتُ بِحَديثَهُ الذِي لا يَنتهَي ، كَانت ذَراتِ الثَلجِ تَتَسَاقط على رُؤوسِنَا بِحنَانٍ ، تَحطُ على مَعَاطِفنَا كما تَضَعُ صِغارِ القَطَطِ ضَعفِهَا في حُضنِ أُمِهَا ..

إنهَا الأمكنَة ..

التي لا تَخون ، نَحنُ من نَخون ، و نَقتَتَل على حَلبةِ الوَقتِ ظَناً منَا بِأنَنَا سَنفوزَ بِالأمكنَةِ ، و مَا إن سَحبنَا سُيوفنَا و شَتعَل بِنَنَا القِتَل حَتى خَسنَا بَعضَنَا إبتَعلتنا القُبور و بَقيت الأمكِنة ..

بَقيت و أبقت الدَمَارَ خَلفنَا لِتُحدثَ الأجَيال بِأنَنَا لا نَستَحق البَقاءِ فَوق رُفاتِهَا ، و لَسنَا أهَلاً لِنَكونَ أحدِ رِفاقِهَا ..

فِيننَا ..

يَا أوتَارنَا المَقطوعة !! ..

نَحنُ هنَا ، هل تُشَاهِدي كَيفَ نُجرُ إلى مَحارِقِ الطُغاةِ كَقُربانِ السَبتِ ، كَانت أكبرِ أمِانِينَا أن نُذبح على مَهَلٍ لِتَستَرِيحَ أرواحنَا ،

و لَكن كَانت الأشَبحُ تَسُوقنَا إلى مُعسكراتِ الإهَانَة ، لِنُجردَ من إنسَانِيتنَا ، فَقط لأنَنَا من بَني يَعقوب ..

و من هُوَ يَعقوب ؟ ..

أليسَ هُو أبا يَوسُف !! ..

النَبي الصَالح المقَدرس !! ..

أنجِدِينَا فِيينَا ، أليسَ نَحنُ من بَني حِجارَتِكِ ، نَعيشُ فِيكِي لِنحيا ، و هَا نَحنُ اليَوم نَعيشُ مَا تَبقى منِى لِنموت على مَرأى هَذا العَالم ، أمَامَ فُصولَكِ الخَمسَة التي لا يَعرفُهَا أحدٌ سِواي ..

الخَريف ، الشِتاء ، الرَبيع ، الصَيف ، المُوسيقى ..

أشَبيعنَا حُباً أُماه ، نَحنُ سُرلَ الأُمنِياتِ و أشَلاءِ الدُموعِ بِينَ أوتَاركِ ، لا تَقولي أنَ كَمنجَاتَكِ كُسِرت ، لا كَمنجة لنَا سِواكِ ، و لا لَحنَ لِجنَائزنَا سِوى مَسَاحَاتَكِ ..

فمنَ الجُنونِ أن نَخرجَ من أرحَامَكِ كَزنبقاتٍ جَبلِية ، و نَموتَ حَرقاً خَارجَ حَرمَكِ ، آهٌ أيتُهَا النُوتة العَتِيقة ، آهٌ من صَمتِكِ ، آهٌ من بَقاياكِ ..

كَانَ السَيد بنيامِين خَطواتهُ ثَقيلة و حَزِينة و تَعيسَة كَبوحِ نَايٍ عَتيق ، إعزف سَيدي جِراحَ صَمتِكَ للقَادِمِينَ من شُقوقَ المِلحِ ، إصفع خُنوعنَا و خَوفِنَا !! ..

لمَا نَحنُ خَائِفِين ! ، و مِن مَن !؟ ..

وَحدهَا الأمكنة سَتطهو آخِرَ أطبَاقِهَا ، مُشَبعة بِالسُمِ أذواقَ المُجرمِين ، نُسَاقُ إلى أفرانِهِم كَحطبٍ شَهيٍ لِلحرقِ ، و نَعود إلى كَينُونَةِ المَوتِ رَمَادَاً ..

لم تَعُد لنَا أُمنِياتٍ ، سِوى حُلمٌ وَاحدٌ فَقط !!

إجمعوا رَامَادنَا بِينَ أمتِعَةِ العَادِينَ إلى الأمكِنة ..

و أُنثُروا بَقايانَا في الهَواءِ الطَلقِ ، عَسى أَن نَعُودَ بِذاراً فَنباتَاً فعِطراً لمِدِينتنَا العَتِيقة ..

فِيينَا ..

يا نَوتةِ الفنَاءِ ، كُلُ من حَولكِ يَفنى سِوى ذَاكِرتنَا ، كم رَفعنَا صَلوَتنا إلى السَمَاءِ لِنَحيا ..

نَعم لِنَحيا ، أضَحينَا نِعَاجاً ، نُسَاقُ إلى المَذابحِ ، فَصدمنَا القَدرُ بِأنَنَا حُطَامَاً للحَرائِقِ ، فَرمَاداً في مَحابِرِ التَارِيخ ..

كَتبَ التَارِيخُ حُطَمُنَا .. على أَسطُرٍ من سَحقٍ و قَتلٍ و تَحرِيقٍ و تَهجيرٍ و ذُلٍ مَا بَعدهُ ذُل ..

أُريد العَودة إلى حَائِطَ الرَبِ لأبكِي يا فَتى ..

حَائِطَ الرَبِ ..

دَائماً كُنتُ أعتَقد بِأنَ لا يُوجد للرَبِ جِدارٍ يأوِيهِ ..

هَيَ الأمكنَة لهَا قُدسِيتِهَا عندمَا يَهبطُ بِهَا الوَحي ، نَلجأُ غليهَا ، نُعمدُهَا بِالطَاعة ، نتَقربُ إليهَا بِالحُبِ ، نَتمرغ بأعتَابهَا ..

ليسَ من أجلهَا ، بل من أجلِ قُدسِيتِهَا ..

دَخلنا الغُرفة التي طَلبُتُ من المُوظف أن يُجهز لي إياهَا ، كَانت غُرفة بِسَرِيرَين ، حَاول صَاحب الفُندق أن يُقدم ايةَ خِدمة للسَيد بنيامين ، و لَكن السَيد رَفضَ أيةَ خِدمة ، و قَبل مني المُسَاعدة ، كَانَ أمر الرَجُل غَريب ، و لَكنهُ يُشعرُكَ بِالرَاحة ..

ـ هَل أُسَاعِدُكَ سَيدي على قَلعِ مِعطَفِكَ ..

خَلعَ قُبعتهُ و وَضَعهَا على السَرير ، كَانَ كُلَ شَيء فيهِ يَشَي بِالتَعَب ، رَجُل خَدمَ الله جُلَّ عُمرهِ حَتى وَصَل بِهِ الحَال أن يَكونَ حَاخَاماً لِيهودِ فِيينَا ..

ـ لا بُني شُكراً لكَ ..

مَا هَذا الرَجُل الذِي لا يُحبُ ان يَخدمهُ أحد ! .. من أي أصنَافِ الرِجَالِ هُوَ ، و في اية مَدرسَةٍ للتَواضُعِ رُبي ! ، رَفعَ جَدَائِلهُ خَلفَ أُذُنِيهِ ، و شَمرَ عن سَاعِدِيهِ ، و رَفعَ بنِطالهُ و خَلعَ جَوارِبهُ ، و

دِخلَ يَغسلَ اعضَائِهُ ، كَانت لِحيتهُ تَتَقاطَرُ أدباً و طُهراً ، مِشَهداً منَ النُورِ الذِي يَشدُ إنتِباهَكَ ..

ـ أتمنى أن أُقدِمَ لكَ ايةَ مُسَاعدة سَيدي !! ..

كَانَ يُجففُ أعضَائَهُ بِمندِلٍ مُتَواضِعٍ قد طُويَّ في جَيبهِ ..

طُرقَ البَابُ فَجأة إنهُ صَاحبَ الفُندُق :

ـ خُذ من يَدي هَذهِ الطَاوِلة الصَغَيرة و قَدمهَا للسَيد بنيامِين ، إنهَا من أجلِ الصَلاة ، و هَذهِ التَوراة أيضَاً ، إنهُ الكِتَاب المُقَدَس ..

حَملتُهَا بمِهَابة ، و وَضعتهُا بِجَانِبِ سَيريرهُ ..

أخَرجَ قِطَعة قُمَاش بِيضَاء كَانت في جَيبهِ الكَبَير ، و وَضَع قُبعة صَغَيرة على رَأسِهِ ، كان يُحَاوِلُ أن يُلصِقهَا بِرأسِهِ بشنَكلٍ حَدِيدي صَغَير ..

و أمسَكَ لَوحَ الخَشَبِ الذِي أُحضِرَ لهُ ، و فَتَحَ النَافِذة قَليلاً ، كَانَ هُنَاكَ شَيئاً من البَردِ ، و لَكنَ إيمَانهُ لم يَمنعهُ من أن يُؤدي صَلاتهُ..

و رَمى بِالوِشاح على رَأسهُ حتى غُطي أغلبَ جَسَدهُ ، و أعَادَ جَدَائِلهُ مُنسَدِلة للهَواءِ الطَلقِ مُحَاذِية لِلحَيتهِ ..

كَمَا أنهُ وَقَف أمَامِ الطَاوِلة و أمسَكَ تَوراتهُ ، و بَدأ يُرتِلُ للهِ مَا تَبقى من سِنهِ ..

كَانت فيهِ من المَهَابة ما يَجعلُكَ تَقفَ ما تَبقى من عُمرك صَمتاً ..

صَلي سَيدي للهِ ..

صَلي لنَا و لِعجزِنَا و لِضمَائِرنَا المُهترِئة ..

كَانَ كُلما عَلى صَوتهُ ، زَادت مَعهُ هزَاتِ جَسدهُ ، كَانَ في حُلولٍ كَاملٍ مع الوَجدِ ، لهُ صَلاوَاتهُ ، و لنَا صَمتنَا المَبحوح ، لَهُ تَراتِيلهُ، و لَنَا خُنوعنَا الرَدَيء ، لهُ صَومعةَ الهَوى ، و لنَا قنَاطِيرَ الخَوفِ ..

هَا نَحنُ جُبنَاء إلى هَذا الحَدِ !! ..

نَعم ، و مَا بِوسِعنَا أن نَصنَع ، إنَ مُجرمِين أوروبا تَكالبت عَليهم من كُلِ حَدبٍ و صوب ، و بَدأت بِإبادَتِهم ، رَغم أنهُم العَامل الأسَاسِي في إقتِصَادِ البِلادِ ، و تَسَير أُمورِ الخَلائِقِ ..

مَعهُم الأموالِ ، و أُنَاسٍ مُسَالمِين ، و لا يَضَرونَ أحد ، فَلمَاذَا هَذا الظُلم و القَهرِ !؟ ..

أنَا الصَحفي الذِي يَقفُ على نَصِ الحَياد ، هَل استَغل هَذهِ الفُرصة! ، أم أُبرُمُ صَفقة عدَلٍ مع إنسَانِيتي ، و أَنقُلِ الحَقائِقِ كمَا هَيَّ ، فإنَّ المُزَايدة في أو المُنَاقَصة في فَنِ الصَحافة يُسقِطُ الحَاذِقَ إن جَعلَ من الحَقائِقِ كِذبة ..

هَذهِ فُرصَتكَ يا فَتى .. إستَمع إلى هَذا الحَاخَامِ و أُكتُب مَا يَجري ، فَلقد رَمى بِكَ القَدرِ في أحضَانِ كَبَيرِ اليَهودِ في فِيينَا ، سِنَّ أقلامَكَ، و أُسفك بَظى حِبركَ على السُطورِ ، و أجعل من ضَمَيركَ طَريقاً يُوصِلُكَ على الصَدق ..

إنهُ الصِدق .. تِلكَ الحَلقة الرائِعة التي تُنجي صَاحِبهَا من الوُقوعِ في شِباكِ اللألسِنة ، أبرم صَفقة حُبٍ مع مِهنَتكَ أيهُا الفَتى ، و أُكتُب مُدونة تُنقِذُ هَؤلاءِ المَسَاكِين من بَراثِيمِ النَازِيين ..

و مَاذَا الآن ، هَل فَكرتَ بالأمرِ مَلياً !؟ ..

هُنَاكَ صَوتٌ في حَشى النَفسِ يَقول :

أخَافُ أن أجعلَ من مُسَاعَدتي لِهَذا الرَجُل نُقطَة إستغلالٍ ، و أخشَى أن يَظُنَ بي أنَنَي شَخص أنَانَي و يُريد أن يَقضَي وَقتَاً لإملاءِ أوراقِهِ ..

أوراقِي فَارغَة ، أقلامي شَاغِرة ، و قَلبي أصَفى من مِياهِ الدَانوبِ، و أحلامي في إطارِ إنسَانِيتِي ، لن أخونَ الأمَانة ، و لَن أُضِيفَ إلا الحَقائِق حتى و لَو كَانت على قَطعِ عُنقِي ..

إنهَا الأمَانة إذاً !! ..

حَسَرة و نَدامة إن وضِعت في غَير مَكَانهَا ، أو نُقِلت على غَير حَقيقتِهَا ، أو سُلمت إلى غَيرِ أهَلهَا فَسوفَ تَكونُ فِعلاً حَسَرة و نَدَامة ..

سَأكتُب الحَقيقة .. حتى و وَلو كَانت مُرة ، نَعم سَأتجرع المَرارة رُغم قَذارَتهَا ، و رُغم مُعاداتِ مَن حَولي ، و حَتى لو طُردتُ من وَظِيفتِي ، إنَ مَا يَجري على أراضِي أُوروبا الشَرقِية لا يَتحملهُ بَشَر ..

لن أحملَ للتَارِيخ الأكَاذِيب ، لَن أُدم للأجَيال مَقالاتِ النِفاق ، أنَا لم أتعَلم هَذهِ المِهنة لأَكونَ كَاذِباً ، لا أُريد أن أخرُج من هَذهِ الحَياة و ضَمَيري يُؤنَبي ..

لَقد أقَسمَتُ في حَفلِ تَخرُجي على أن أعملَ على نَقَلِ الحَقَائِقِ ، و أنَ لا أَخونَ الوَاقِعَ و لا المُستَقبل ، فَكم من كَاذِبٍ لَفقَ للأجَيالِ أحَدَاثٍ جَرت فِيمَا مَضَى مَعَى التَارِيخ ..

مَا الذِي جَنوهُ حَامِلينَ الأكَاذِيب ! ، مَا الذِي صَنعُوهُ دُعاةَ الفِتن ! ، فَلقد كَان لَهُم نَصَيباً كَبَيراً في تَرويةِ النُورِ بِسَوادِ حِبرهِم ، و كَانوا و لا زَالوا شُركَاءٍ في الجَرائِمِ التي تُقامُ ضِدَّ الإنسَانِية ..

هَل التَارِيخ لَهُ قَضَاء !؟ ..

نَعم ، فَقط تَحرر من كُلِ شَيءٍ ، منَ المُعتَقد ، و من الدَينِ ، و من العِرقِية ، و من القَومِية ، قِف أمَامَ النُصوصِ كَيومِ وَلدَتكَ أُمُكَ ، و تَجرد مَا استَطعت من ذَاتِكَ و من مَطَامِعَكَ ، و من شَهواتِكَ حَتى تُنصِفَ الوَاقع و تُقدم وَجبة شَهية بِالحَقائِقِ للتَارِيخِ و الأَجيالِ ..

أن تُدفنَ في مَقابِرِ الكَاذِبينَ فهَذا أمرٍ مُروعٍ ..

أن تُشتَمَ أمَامَ الأَجيالِ فهَذا أمرٍ فَضَيع ..

أن تَكونَ وَجبة نَتِنَة للتَارِيخِ و القَالِ و القِيل فَأنت قَد وَضَعت نَفسَكَ في زَاوية سَتَتسَبب لِذاتِكَ و لِمن حَولكَ بِالأذى .

إنهَا الرُوح ..

لهَا غذاء الرَاحلينَ إلى السراب ..

كَطيات الضَباب خَلف كُثبان الغَبش ..

صَلي كي تهدأ تلكَ الملكومة بالفقد و الغياب ..

من هُم الذينَ فَقدناهُم ، و لما هَذا العَذاب ! ..

عذب مَا شئتَ من بقايانَا يا سيد الأقدَار ! ، أتعجبُكَ الأشَلاء القَابعة هُنَا و هُناك .. !

أُريدُ ملحَ إسمي ، و حُطَامَ المستَقبل ، و خَيالَ المُتنكرين بالمَكانِ و الزمَانِ ، أُريدهُم جمِيعهُم ، أُريدُ أن أُسند كُهولتي على ظلهم المُضمحل في الغبشِ الخالِي من وُجودهم و أشباحهم ..

أتراهُم أحياء لأغرُسَ أملي على أعتَاب الله ! ..

أم أموات فَأبكيهم و أَندبهم ! ..

مَا فُعِلَ بهم يا رباه ؟ ..

إنتهى السَيد بِنيامِين صلاته ، ساعة كاملة بتوقيتِ العجزِ و المُناجاة ، كلمات و تراتيل كانت تَتَطاير هُنَا و هُنَاك ، كانت تَتَراشق كالزيت المغلي ! ، أتُراها الكلمات أحرقت شَراشف السماء ! ..

وحدهم من وقع في جوفهم مظالم وفيرة ، من حركَ زَيتَ قَلبه و شد سهامَ دعواتهِ إلى قدرٍ مُحمسٍ بالإجابة ، أنهى الكهلُ وجعهُ المُغبر بالدُعاءِ بكَلمة :

ـ اللهم آمين .. اللهم استجب ..

حَاولتُ أن أسُاعدهُ على القيام ، هُو الذي عقد رُكبتيهِ راكعاً أمامَ عظمة الخَالق ، كيف له أن يقوم من مُصلاهُ و صَخب الرُكوع قد أحاط بمفَاصله :

ـ هل لي أن أُساعدكَ سيدي ؟ ..

ـ ها ها ها .. يسُرني ذلكَ ..

دائما الضحك هو ، كأن هَذا الكون بما فيه من ظُلم لا يَعنيه :

ـ لا أعلم لما أُوافقُ على أي طَلب تطلبهُ مني ، و من ضمن طلباتكَ المُساعدة !! ..

لَقد وقعتُ في حيرة الذات و الكلماتِ :

ـ و هَل لكَ عَادة رَفض المُساعدة !؟ ..

كُنتُ أمدُ لهُ يدي و كان يُمسكُ بمعصمي بشدة ، يُحاولُ النُهُوضَ ، و أُحَاولُ مُساعَدتهُ :

ـ لا ، أنا أُحبُ الخير دَائمَاً ، و إن لم تُصدق فغداً صباحاً إسأل الطيور ، هيَ وحدها التي تعرفُني جيداً في هَذه المَدينة !! ..

كهلاً بسن الأمد ، و أحرفُ التَوراة المُعتقِ ، و راعِياً مُرسلاً من سَماء يَحرسُ طُيور مَدينته ، كيف لهُ أن لا يعرف الخَير :

ـ عفواً سيدي أن لم أقصد ، أنا أُصدقكَ ..

نَهضَ الكَهلُ كَأنما هُوَ جبل من نُور ، و بَدأتُ أمشي معه إلى الكَنبِ الذي يتوسَط الغُرفة ، جلسَ و جَلستُ أمامهُ ، سَكب المَاس في الكَأسِ و بدأ يَشرب و يشرب حَتى شَعرتُ بأنهُ سيغرق :

ـ أنا أشكُر الرب على هَذهِ النعمة ، نعمة الماءِ ، إنهَا الحَياة ..

بادلتُ كَلامهُ بإبتسَامة ، و لَكنَ في جُعبتهِ أحَادِيث و حكايات و آلام قَد نَضجت و لعل خُروجهَا قَريب جداً :

ـ حَسناً بني ، سَمعتُ بأنَك صَحفي ، و أتيتَ من لُندُن كَي تُغطي آخر التطورات في هَذه المدينة !! ..

و أخيراً بدأ يتحدث و يفتح لي قلبهُ :

ـ نَعم سَيدي أنا من لندُن ..

كَسَرَ حدةَ نظراته ، و وضع بوجههِ أرضَاً :

ـ هَل حَدثَ شيء سَيدي ! ، هَل أزعجتُكَ بشيء ! ..

رَفع رَأسه كأنهُ أراد أن يَعتَذر :

ـ لا بُني ، ليس هُناكَ شيء أبداً ، و إنما كانَ ابني صحفياً ، و كَانَ لَديه صحيفة خَلف هَذا الفندُق ، و كَانت أول صحيفة تُفتَتح في هَذه المَدينة .. و لكن أُحرقت و دُمر كل ما فيهَا ..

أنا سَمعتُ ما يقولهُ السَيد ، كُنتُ مَصدُوماً مما أسمع ، و ما الذي يجري في هَذهِ البلاد :

ـ و كَيف حصَل ذلكَ ! ، أنا آسف لتدخلي ، و لكن هذا الأمر فَظيع جداً ، من الذي فعل ذلك ، و كيف و أين و متى !؟ ..

أخرجَ السيد بنيامين منديلاً من جَيبهِ ، مَحاولاً اللحاق بدمعة أرادت أن تُفلت من عَينه ، و لَكنهُ أمسكَ بها قَبل الهُطول ، فالهُطول في ميزانهِ عيب ، و سُقوط في وَحل البُؤسِ :

ـ يا بُني إنها قصة طَويلة جداً .. و لَكن أُريدُكَ أن تَنقُلَ إلى الصَحَافة مَا حَلَّ بنا من بَلاءٍ و كَارثة ، فهَل سَمعتَ مَا حَدثَ لنَا!..

كُنتُ مُتأثراً به جداً ، و لأنهُ رَجُل مكسُور ، و مع أنني لا أعلم ما الذي حَل بأبنَائه ، إلاَّ أنني مُتأكد بأنَ وراءهُ مئات القصص المؤلمة ، كيفَ لا و هُو الحاخام الرسمي ليهود فيينَا !! ..

ـ كَم عُمركَ بُني ! ..

ـ ثَلاث و ثَلاثينَ سنة ..

طُرقَ البابُ مرة أُخرى ، فَتحتُ الباب ، و إذا بهِ صاحب الفُندق ، يحملُ كوبَين منَ الشاي :

ـ عُمتَ مَساءَ .. هذا الشاي لك و للحاخام بنيامين ..

ـ أووه شُكراً لك سيدي .. لقد أتى في وقتهِ ..

ـ أتمنى أن تَطلبني في أي وقتٍ ، فأنَا بالخدمة ..

ـ شُكراً لك مرة أُخرى سيدي ، لا عليكَ فَأنَا أقومُ بخدمة السيد بنيامين بنفسي ..

كان خلف وقوفِه كلام يريد أن يقول لي إياه ، و لكنهُ كان مُحرجاً:

ـ بُني عندمَا تَستمع إلى ثلاث طَررقات خلفَ الباب بطرقة سريعة فيعني هذا أنا ، أخاف أن يأتي أحد إليكم و يصنع معكم مكروهاً .. لم أخشَ على نفسي ، و لكن خَشيتُ على هَذا الرجل الذي معي إذا حدثَ أمراً مُضراً ما الذي سَيحدث له !؟ :

ـ حَسناً ، لقد فهمت شُكراً لك على حرصكَ !!

ـ سَوفَ أتركُكَ ترتَاح الآن ، عُمت مساءً ، أوصل التحية للسيد بنيامين ..

ـ حَسناً لا عليك .. عُمتَ مساءً ..

أغلقتُ البَاب بإحكَام ، قدمتُ الشاي للسَيد بنيامين :

ـ أووه لقد جاءَ الشَاي في وقته ، هَل أنت من طَلبتَ الشَاي !؟ ..

ـ لا سيدي .. إنهُ صَاحب الفندُق ..

العودة إلى القافية ..

الرُجوع إلى البداية ..

دقة الشوق هي ذاتها دقة الشوق ، و ذَاك الشق الذي لا زَال يَنزف شيئاً فشيئاً ، ما هوَ السبيل كي يتوقف..

لا سبيل لتجفيف منابع الألم ..

أُريد التحدُث ، أُريد أن أستخرج وحل الصمتِ من قلبي ، أُريد أن أَخلُدَ إلى النومِ .. ذَاك النَوم الذي يُراودني مذ أن حَلت بنا الكارثة..

كارثة الكراهية و العُنصرية التي راح ضحاياها آلاف الأبرياء ، ما معَنى أن تُجرد من إنسانيتكَ ، و تُضحَى أحلامكَ عارية كالسراب ، تَحمل رحلتك إلى أمانيك و ذَاكرتكَ و أشيائكَ و بقاياك ، أين هي المحطات أين الأمكنة أين الدقائق الثابتة بين عقارب الوهم الجريء ! ، أين هُم ! ..

ـ هل تُريد أن تُحدثني عن عَائلتكَ و أين هم الآن سيدي !؟ ..

بدأ السيد بنيامين يحتسي الشاي ، فلقد كانَ مُفعماً بالروحانية و الحُب ، و كُنتُ أعيشُ معهُ لحظة من الحُلول في الذاتِ :

ـ إجلس بُني ..

جَلستُ مُقابلاً لهُ ، و مُحاذياً للكلمات ، أُريد أن أَنقُل لهذا العالم صورة حقيقية لكبير الطائفة اليهودية في فيينَا ، إنها مأساة العصر:

ـ لَقد قُلتُ لكَ آنفاً بأنَ ابني كَان صحفياً ، و قَد أسَسَ صحيفة كان مكانها خَلف هَذا الفُندق أليسَ كَذلكَ .. !

هززتُ رأسي موافقاً لحديثِهِ :

ـ نَعم سيدي لقد ذكرتَ ذلكَ ..

وَضَعَ فنَجانهُ على الطَاولة الصغيرة :

ـ بُني .. هَذا ابني الرابع بين الذُكور ، كنا نُطلقُ عَليه شمعون ، لقد تخرجَ من كُلية الحُقوق في لُندن قَبل ثَلاثِ سَنوات ، وكُنتُ فَخوراً به لأنهُ كانَ مُجداً بالعَمَلِ و النَشَاطِ ، كُنتُ أتوقع منذُ صغرِ سنهِ بأنَ هَذا الفَتى لهُ شَأن عَظيم ، و لَكن لم أعلم بأنَ هَذا الشَأن سَيكون في عَصر هُو عصر شُؤم ..

كانَ السيد بنيامين يتحدث ببُطء ، و لكنني قَاطعتهُ قائلاً :

ـ هَل تَسمح لي أن أُدون ما تَقول سيدي !؟ ..

أعَاد هيئة جلسته و لكنهُ بدأ بالسُعالِ ، خفتُ عليهِ ، سكبتُ لهُ كأساً من الماءِ ، و قدمتهُ لهُ :

ـ تفضل سيدي إشرب الماء ، هل لي أن أُحضر لكَ الطَبيب ..

ـ شُكراً لك بُني ، لا تُتعب نفسَكَ أنَا بخَير ..

وَضَعتُ الأوراق و أخرجتُ القَلم من غمدهِ :

ـ حسنَاً سيدي هَل أنتَ بخَير الآن .. !

ـ نَعم بني أنَا بخَير .. إنَ ابني شمعون كانَ يُشبهُكَ ، كَطَبعكَ تَماماً ،كَان جَميلاً خلوقاً ، لَقد أَرهَقني الزمانُ على تَربِيتهم ، و لكن من حُسنِ حَظي أنَهُم كانوا مطيعين لي و هَادئين جداً ..

تَدخلتُ لأشُنَّ عَليهِ أول سُؤالٍ :

ـ و هَل كَان لَديهِ أيةَ توجهات سياسية أو لديه أي فكرٍ مُخَالف للإفكَارِ السياسَة الدَاخلية للبلاد !! ..

ـ بُني نَحنُ دَائماً أُناس مُسالمين جداً ، لَيسَ لنَا أية إتجاهاتٍ سياسية ، لنَا في مَصالحنَا الشَخصية فقط ، و لا نتدخل في الآخرين ، و لكن هُناك حملة شَرسة ضدنَا بَدأت قَبل أربعةِ سَنوات عَبر الصُحفِ و في المجالسِ التي يُقَامُ بهَا النقاشاتِ السياسية ..

ـ و لكن على مَا يَبدو أن ابنكَ شَمعون لهُ إتجاهات سياسية ، فنَحنُ نعلم كَصَحفيين أن الذين يعملونَ في الصُحفِ و القَائمينَ على الصُحفِ لهُم إتجاه سياسي مُعَين !! ..

ـ من الجديرِ بالذكرِ أن تَكونَ لكَ حُريتكَ الشخصية كَأفكَار و مُعتقدات بشَرط أن لا تُؤذي أفكار و مُعتقدات الآخرين ..

ـ نَعم هَذا صَحيح ، و لكن هُناك موجة سياسية كما تُلاحظ تَطغى على البلاد !! ..

ـ بُني إذا كَانَ جَميع من حولي مُنَاصرين للباطل ، هَل يَا تُرى تُريدني أن أُناصر البَاطل مثلهُم أيضَاً ، هَذا أمر مُحَال ..

ـ و مَا هُو الباطل في إعتقادكَ سيدي !! ..

ـ البَاطل هُو أن تُناصرَ الظُلم و أنتَ تَعلم بمدى سَواده و فسَادهِ الذي يلحقُ بالعبادِ و البلاد ..

ـ هُل هُناك حَل لهذهِ المُعضلة ! ، أي أن مُعضلة عَدم الوَعي و التمييز بينَ البَاطلِ و الحَق !! ..

ـ بُني هَل تَعلم من هُوَ الغبي ! ، إنَ الغبي هُو الذي لا يعرفَ اللون الأسود من الأبيض ، و كَذلكَ البَاطل و الحق ، فمن لا يَعرفهُ و لا يُميزهُ فَهو أبله و مُصر على فَساده و باطلهِ ..

ـ من الذي يُبين الفَساد من الصَلاح يا سيدي !؟ ..

ـ عَزيزي ، هل ترى هَذه الشَمس ! ، إنهَا ليست بحَاجة إلى شخصٍ يوضحُ للآخرين عن لونهَا ، فالذي لا يَعرف الشمس هُو الأعمى فقط ..

ـ هَل تَرى بأنَني أبحثُ عن الحق في هَذه المَدينة !

ـ هَا هَا هَا ..

ضَحكَ السيد بنيامين كَثيراً ، شَعرتُ بأنَني سَخيف جداً :

ـ عَزيزي ، هَل تَرى هَذه المدينة ، جميع من فيهَا من بَشَر و حَجر و حتى حَيوانات تعرفني ، و لكن أنت لم تسَأل نفسكَ لما لم يساعدني أحد عندما شاهدتني مُلقى على الأرض ، هَل يا تُرى أنهم يَعرفونَ الحق منَ البَاطل ! ، أم أنَ الإنسانية فُقدت !؟ ..

ـ لا أعلم سَيدي !! ..

ـ لا ليس المهم أن تعلم ، المُهم أن تُقدم النتَائج بعدَ علمكَ بالشَيء ، هُؤلاء النَاس أنا مدين لَهُم بكُلِ شَيء ، فَلقد أنفقنَا مَا أنفقنَا في هَذه المَدينة من مَال و جُهد و حُب و وَفاء .. و لَكن كَانَ مقابل المَعروفِ بأن يُساق جَميع أفراد عَائلتي إلى مُعسكرات الموت ، و نُهبت جميع ثرواتنَا من هَؤلاء النَاس الذينَ قدمنَا ما قدمنَاه لهُم من خير ..

لَقد صُدمتُ ممَا يَجري ، أيُعقل أن يحدُثَ لهُم هَذا البَلاء العَظيم ! :

ـ و ماذا أيضاً سيدي !؟ ..

ـ عَزيزي ، لا يُوجد كَلمة بَعد هَذه المُصيبة ، غَير أنَني أطلب العُونَ من الله أن يُنزلَ علينا عنايته و رَحمته ، كُنتُ أتمنى أن أُساقَ مع أبنَائي و زَوجتي إلى مُعسكرات المَوت .. !!

عَائلة ..

لَيست كلمة تُقال ..

إنهُ خليطٌ من ذاتكَ ، و بدَاية لأول صرخة ، و أول ولهة ، و أول لَهفة ، و أول سير إلى المُستقبل ، من أنتَ من غَيرهم !؟ ..

و لتكُن أنتَ من أنتَ !! ..

أنتَ الذي أبصرتهُم ، أو رُبما أبصروكَ ، فلن تَشعُر بذَاكَ الفَراغ الذي يَعيشهُ من فَقد أهلهُ ، إسَأل أولئكَ الفَارغينَ من لَمسة حَنان .. فَتش بين تَفاصيلِ مَلامحهم ، كم من موقف حزن و بؤس قد سيطرت على تلك الخَرائط .. دعُهم في صراع معَ الخيالِ ، لا تلمس أحلامهُم الهشَة ، و لا تُيقظ ذلكَ الغُول الذي يغفو بجَانبهم ، سر خلفَ هَشاشَتهم كما تَسيرُ فراخ البجعاتِ على مُستنقعِ الذَات .. فَقدوا الذَات و المَلذات ، و ألجمتهم سُرعة الحَياة ، هُم الواقفونَ قبلَ عقاربِ الوقتِ أعياهُم التوجس ، يتجسسونَ على آثَار المُرغمينَ على العَيش ..

لو سألتَهُم يوماً :

مَا الذي تَنتظرونهُ من الدَقائقِ الخَافتة ..

إنهُم الضَبابيونَ الفَارغونَ من الهَوى ، كَانَ الهَوى يَتَناغَمُ مَع أُمنياتهم ، فَنت الأُمنيات من بعدِ أن غَابت عَن أعينهم أولئكَ الذين

كبروا معكَ ، و أحبُوكَ ليسَ لأنكَ أنتَ .. بل لأنَكَ تُناسبُ مَقاس حُبهم و مقاس أرحامهم ..

لا تَغفو سيدي ..

لا زَال هُناكَ مُتَسع من الحُب .. !

الحُب ؟ .. أينَ هُو هَذا الحُب ! ..

كُنتُ أراهُم الحُبِ ، و هَدية الرَب ، و أنَا على مَشارف المَوتِ أُطلُ بكسري ، و بقايا ذَاكرتي إلى سُفوح ملامحهم .. كانوا هُنا!!.. أجل كانُوا هُنا ..

أربعة فتية و ثلاثة فَتيات و زوجة !!

أَتُراهُم أين هُم ، و ما فَعلَ بهم القدَر ؟ ..

لَولا قُدسية الإيمان لمُتنا قهراً ، نعم قهراً ، أنتَ لا تَعرف القَهر و لا كيف تكون بداياته ..

ـ يا بُني حدثت حكَاية القَهر مُنذُ سبعة أَشهُر ، شَعرتُ بأنَ هذهِ الأشهُر التي مَضَت سَبعة قرون ، لأنَ فيهَا من الهَم و الغَم ما يَتفطر لَه القلب ..

ـ و أنَا بهَذا السنِ ، و قبل عشرين سنة كُنتُ أُعدُ العدة لاستقبال الله.. الأكفَان و التَابُوت و القَبر ، و حَتى الخير ..

لأنَني لن أرحَل إلى الربِ ببقايا كَلام و وَعظ و إرشاد ، إنَ الإيمانَ بحَاجة إلى عَمل كي يستَقر في العَقل و القَلب ..

مَا معنى أن تُؤمن بالآلهَة و أنتَ تُؤذي جيرانكَ و تُكنُّ لهَمُ الشَر !، دَعكَ ممن تَجنيه آلة اللسان ، و ابحث عن الله في أمعَاء الضعاف و الفُقراء و المُحتاجين ..

ـ هَل سَمعتَ بجمعية المُتسَولِينَ في العَاصمة فيينا !! ..

بَدأتُ أتذكَر ، كَأنَني سَمعتُ بهَا :

ـ رُبما سَيدي !! ..

هُنَا الوَقت برعَايةِ الموت ، هُنَا فيينَا في عَصرِ الكَراهية ، كُل شَيء هُنَا مُعد و مُتوقع في مَطَابخِ المُتَطرفينَ ، أولئكَ الرعيل المُتَحيز لذاتهِ و ملذاتهِ :

ـ إنتشرَ في الآونة الأخيرة الجوع و الفقر في كُل مَكان في هَذهِ المَدينة ، حتى لجأ كَثير من أصَحاب الدخل المحدُود إلى المَشروبات الرُوحية ، ظناً منهم أنهم سوف يتَنَاسونَ ما هُم بهِ من ضنك .. لم يُعجبني هذا الوضع المُتردي في المَدينة ، و خُصوصاً بأنَ أصَحاب الثروات مُتمسكينَ بأموالهم ، و الطبقة المُتوسطة الدَخل قَد شَارفت على الفناءِ ، فلم يبق هنُا سوى طَبقتين الغَنية و الفَقيرة فقط ..

ـ بني إن الأمر كان شبه فاجعة و كَارثة إنسانية ، و قلبي لم يتحمل، قررت إبنتي ديبورا بالإتفاق مع ابني شَمعون أن يفتحوا هذا الموضوع الشائك أمامي ، كانوا أبنَائي يشعرون بأنَني قدوة حسنة لهُم ، ظناً منهُم بخبرتي في الحياة .. عندمَا سَمعتُ منهُم لُيونَة قلبهم و طُهرهم شَعرتُ بالفَخرِ لأنَ تَربيتَهُم لم تَذهب سُداً ، فَقررنَا أن نَفتتح جمعية صَغيرة لإطعامِ المُتسولِينَ في هَذهِ المَدينة..

ـ صَدقني يا بُني لم نَكن نُصدَق هَذا الكم الهَائل من الجياع في فيينَا، كَان مئات البشر يترددونَ إلى الجمعية كُلَ يومٍ ، و لا تغيب الشمس حتى يشبع أغلب من إرتادَ هذهِ الجمعية ، كم كانت جَميلة تلكَ الأيام المُفعمة بالبركة ، لقد عوضني الربُ كثيراً في المعامل التي كَانت تَضخُ لنَا الأرباح المُباركة ..

ـ سَيدي الحاخَام ، كيف تُعطونَ أُنَاساً هُم بَعيدين عن الله ! ..

إبتسم السيد بنيامين متعجباً :

ـ الإنسَانية لا تَعرفُ عَاصياً و لا صَالحاً ، أنت كإنسان علاقتكَ مع الرب فقط ، و ليس لك أية علاقة في صَلاح الناس و فسَادهم ، إفعَل ما يُدليه عليك قلبك من خَير ، واترك أفعال البَشر إلى الرب، نَحن بنو الإنسان مَجبولون على الحُبِ و الخَير ، فَمهما مَا

تَصدرت أعمالكَ قَوائم الشَر ، سَتبقى نَزعة الخَير تَتَردد إلى رُوحك ، لأنَ الروح بحاجة إلى غذاء ، فَغذاء الرُوح تغير قلبكَ للنَاس و نشرِ الخَير هُنا و هُناك ..

ـ سَيدي الحَاخَام ، هَل الجَمعية قائمة إلى الآن !! ..

كَسَر الحُزن عُيونهُ كأنما جُيوش من الدُموع هَطلت بلا غُيوم :

ـ بُني الخَير إن كَانَ من صُنعِ قَلبكَ ، فسَوفَ يَدوم حَتى لو حَاول جَميع من في الكُونِ إحراقه و إخماد نُوره ، لم أتَخيل بأن يسطوا النَازيين على هَذهِ الجَمعية ، و يَجعلوهَا مَشفاً لجرحاهم و جَرحى ضعافهم ، فَطالما ذَهب إلى عَملِ الخَيرِ ، شَكرتُ الرَب على ما حَدثَ للجمعية !! ..

ـ شَكرت الرَب لأنَ النَازيين سَطوا على الجَمعية ، هَذا أمرٌ عَجيب!! ، عَفواً سَيدي لم أقصد أية إساءة ، و لَكن أنَا مُستغرب من كَيفية الشكر !! ، و هَل يشكر الرَب على البَلاء ؟ ..

ضحكَ السَيد بنيامِين ، و لَكأنهُ سَخرَ مني :

ـ بُني العَزيز ، الرَب يُشَكر دَائِماً في الرخَاءِ و البَلاءِ ، لأنَ الضَرر الذِي نَراهُ ضَرراً رُبمَا يَكون به الخَيرية لنَا و لأهلنَا ، فَمن عَرفَ الرَب في ذروة الوَجعِ ، عَرفهُ الربُ في قَمة السَعادة ، و العَكسُ صَحيح أيضاً ..

الشُكر ..

إمتنَان نُقدمهُ لمن صَنعَ معنَا معَروفاً و لَو ببسَمة ..

رُبمَا تَراهَا مُجرد كَلمة عَابرة ، لا تظُن ذلكَ أبداً يا عَزيزي ، فَإنَ الشُكرَ إعادة المَعرُوف لصَانِع حَقه ولو بكَلمة ، كلمة واحدة فقط تجعلُكَ سعيداً أو حزينَاً ..

لَو دقَقت جيداً بأحكامنَا على الأشياء ، و إعطائها حُكم الحُبِ أو البُغضِ أو السلمِ أو الحربِ ، لَو جدتَ أنَ بَعدَ تفكيرنا و نطقنا بهذا الحُكم يأتي بكلمة ..

نَعم كَلمة ، لعلها تُكتَب أو تُنطَق أو تُسمع أو تُرسَم ، فَربُما تَكُن إسم أو فعل أو صفة .. أنتَ معلق من كَماشاتها و لا يمكنكَ الإفلات من ماهيتها ..

هَل تُريد أن تُحب ! ..

من السَهلِ أن تُحب ، و لَكن منَ الصَعبِ إبراز حُبك للطَرف الآخر ، يجبُ عليكَ الإثبات أو التلميح أو التصريح ..

لَن تَنجو من الإعترافِ و لو بكلمة ، بشرطٍ واحد ، هو أن تَكون أخرس و عامِياً لا تَعرفُ تكتُب كَلمة ..

يُقَال بأنَ العُيون لها سُطور ، تُسرد على أرصفتهَا حكايات و روايات ، نَحنُ نَعرفُهَا و هي في الحقيقة موجودة و لَكن أين ! ..

دائماً كُنتُ أظُنُ بأن حياتنَا هي محطات نوقفُ أُمنِياتهَا ، نُفتشُ عن مرهم لجراحنا ، نظنُ بأننا سَوفَ نَجدُ ضالتنَا ، نَتسول على الأعيُن الكالحة بالوَحدة ، ظناً منا بأننا وحدتهم و ما إن وُضِعت على وحدتنَا سَوفَ نُشفى من المَاضي ..

نَحن أكوام من خَراب ، و غبار الطَلع الذي تَتقاذفهُ الأُمنيات ، و أضدادُ حكاياتٍ لم تكتمل لأنَ من أطلقَ لنَا أُعزوفة البَقاء قَد رَحل.. هَل رَحلوا لأنهُم ليسوا أهلاً للبقاءِ ، أم أعجبتهم نَغمة الخيانة ، أم نحنُ لم نَعِ مُهمةَ أن نَبقى على قَيد الترقُب ..

نَحنُ مزيج من الكَلمات الصَادرة من أفكَارِ البشَر !! ..

من هُم هَؤلاءِ الذِينَ يُطلقونَ عليكَ اسمكَ ، و يُحدِدونَ مُعتقدكَ ، و يُحجمونَ فكركَ ، و يُلقونَ بكَ في مَتَاهَاتِ الضَياع تَبحث عن ذَاتكَ و إنسَانيتكَ ..

لا تَستمع لأحد يا عَزيزي .. لا يغرك منطق الغَير يا فتاتي ، كُونوا أنتم و لا أحد غيركُم ..

إن أحَببتَ أن تَستَمع و تُنصت جيداً ، هُناكَ و في جَوفِ الحَشَى مَحطة صادقة مُجربة و ليس لهَا مصلحة لتُغريكَ و لا تُوقعُ بكَ ..

إنهَا إذاعة راديو :

ـ إف .. إم .. الإنسانية ..

تَظُنُ نَفسكَ بأنكَ في الطَريق السليم ، و تَنَاسيتَ بأنكَ تجميع و تركيب من حَولكَ من أفكارٍ بالية و مُعتقداتٍ فاسدة ، و خُرافاتٍ و نفاقٍ و قَومياتٍ و وَطنياتٍ مُهترئة .. لو كانَ بهَا خَير لأصلحتهُم.. إبحث عن ذَاتكَ في قَعرِ جَوفكَ .. و اسَتمع لصدى الإنسَان الذي يَعيشُ في أحشَاء قلبكَ ، لن يُضيعكَ ذَاكَ الذِي تَرعرع مَعك ، إنهُ يُحبُكَ و يَعتبرُ بأنَ نَصَيبهُ من نَصيبكَ و أنَكُما تَمشيان في ذَاتِ الطَريق ..

كانَ الكَلامُ يَخرُج من فوهَةِ الألم :

ـ سَيدي الحَاخَام بنيامين ، هَلا حَدثتني عن عَائلتك ، و أين هُم الآن ، أنَا أعتذر على تَطفُلي ، و لَكن أنَا أشعُر بأنَهم لَيسوا في هَذهِ المَدينة ! ، أو لعَلهُم خَرجوا من هُنَا ، أو رُبما هربوا !؟ ..

كَانَ يُتقنُ إرتشَافَ الشَاي ، و يَستمتعُ بشُربهِ شَيئاً فَشيئاً :

ـ بُني ، عشنا في هَذهِ المَدينة سِنيناً طوال ، و وَرثنَا الحُبَ من أجَدادنا كادر عن كادِر ، لَقد رَبيتُ أبنَائي كما تَلقيتُ التَربية من آبائي ، و لكن كُنتُ أعلم بأنَ العُصور تَتَغير و تَتَبدل و تتَطور ، فَأعطيتُهم الحُرية في إختيارِ أفكارهم بِشرطٍ واحدٍ فقَط ، هُو عدم نَسيانِ مَاضِيهم و أنهُم من عَائلة أمضت حَياتهَا في الجدِ و الكَدِ ،

و لم نَصَل إلى مَا وَصلنَا إليهِ من ثَروة و صَدارة بالتَجارة و غَيرهَا من جلبِ رزقٍ إلا بِالهمة و التعب و السَهر ..

ـ بُني العَزيز ، هَل تَعلم بأنَ يومَ غَدٍ هُو اليَوم الذِي يُصَادفُ يوَمَ زواجي .. !!

قَاطعتُهُ كَأنما أُريد أن أبتهج لبهجتهِ :

ـ حَقاً ! ، إذا هُو عيدُ زواجكَ غداً إذاً !؟ ..

لم يبتَهج أبداً ، و لَكنهُ وَاصَل مَا بَدأ بهِ :

ـ نَعم إنهُ عيد زَواجِي كَما أنتَ تَظُن ، لَقد تَزوجتُ و كَانَ سني عشرون عاماً ، غضاً طرياً يافعاً في بدايةِ الحياة ، لَقد إلتَقيتُ مع زَوجتي في أحدِ المَعابدِ اليَهودية أول مرة .. كَانت تَحملُ أُمهَا العَاجزة في كُل سَبتٍ لتحضرَ القُدَاس الذي نُحييهِ مع بَقيةِ أبناءِ الطَائفة في المعبد ..

ـ آه يا بُني قد أعدتني ستونَ عامٍ على الورَاء ، عندمَا كُنتُ خَارجاً من المعبد سمعتُ أُمهَا المسكينة تصيح لها :

ـ بُنيتي رُوت ..

ـ يا بُني مَا أجملهُ من إسم ، كانت و لا زالت جميلة جداً ، كأنها قمر مضيء ، راحت براكين هواي تتقاذفني هُنَا و هُنَاك حتى

أرمي بشباكي على ساحلِ قلبها ، لو رأيتهَا كأنها مَلكة مُتوجة بالبياض ..

لقد فَتحَ السيد بنيامين لي قَلبهُ كأنهُ يعرفني قَبل ستين عام :

ـ إقتربتُ إلى أُمها شيئاً فَشَيئاً :

ـ أُسعدتي صباحاً سيدتي ، هل أستطيع المُساعدة !؟ ..

كانت أمهَا المسكينة مُتعبة جداً ، و قَد أرهقهَا المرض و أخَذَ منهَا نصِيباً من التَعب :

ـ هذا لُطف منكَ يا بُني ، إنَني قَد أرهَقتُ إبنتي في كُلِ صَلاة تَأتي بي إلى هُنا ، لَو سَاعدتهَا سوف أكون مُمُتنة لكَ ، تَدخَلت رُوت فَجأة :

ـ آسفة أُمي لقد تَأخرتُ عَليكِ ، أرجُوكِ لا تَتَذمري مني ..

ـ حَسناً بُنيتي ، هَذا الفَتى سَوفُ يُساعدكِ بنقلي إلى المَنزل ..

رفعت عينها على بريق عيني و إبستمت :

ـ هَذا لُطف منكَ ..

ـ بكُل سُرور ، هَذا أقل واجب أفعلهُ ..

إتَكأت الأُم المسكينة على كتفي و زوجتي التي لم أتوقع أن تكون زوجة لي ، و لامست كفي كفها ، وقعَ الحُبُ بعد عَامٍ من المعارك العاطفية ، و لكن فقدت أُمها الحياة قَبل أن تَحضُرَ حفل زواجهَا ،

كُلنَا وقعنَا بالحُزنِ ، لأنها كانت امرأة مُؤمنة و طيبة و صالحة ، و جَميع أبناء الطائفة يحبونها بشدة ..

رُوت ..

يا آخر فُصول الزنبق الجبلي ..

عندمَا أفقد صوتَكِ ، أشعُر بأن هذا الكوكب إجتاحهُ الجليد ، ستون عاماً و أنا على قيد الحُب ، أنضج شيئاً فشيئاً على شمعدان وجودك ، يا رائحة العطر قبل إقبال الربيع و قبل إيابهِ ..

ها أنا هُنَا ..

وَحدي ..

أجرُّ أذيالَ الهزائم ، على عَاتقي كُل هُموم المجرة ..

أعتقني يا قائدَ الموتِ من إنكساري ، و أطلقنِي في الهوءِ الطلق حيثُ الهوى حيثُ الحُب حيثُ رُوت ..! ..

أطلقَ السيد بنيامين شَتَاتهُ للتأمُل ، كَانت رَشفات الشَاي فَاصل قتالي بينَ كُل شَوط و شَوط ، و بين كُلِ رشفة و رشفة ، كُنتُ معهُ في ذَات الوتيرة ، و على السكة نفسها ، إلا أن الوجع كَان يختلف إختلافاً كُلياً ، هُو يَخطو بألمٍ ، و أَنا أكتُب بتَوتُر و قَلق ، لم أعلم الذِي يُخبئهُ هذا الحاخام من ذكريات ، إلاَّ أن وحيَ الكوارث قد حَلت في صَدره و على كُل ملامِحهِ ..

لو الملامح تنُطق !! ..

يا رباه كم بهَا من مَخاض ..

كَانَ يُحدثُني عن زَوجته رُوت ، و لكأنهَا بجانبي ، كم كُنتُ أتمنى لو أنها بجَانبه لتحنوا عَليه بحَنَانها ، و لأسمع ما جرى لها ، و لكن للآن لم أعلم ما الذِي حدث لها ، و هل هي على قَيد الحياة !..

ـ لقد أخذتني إلى مكانٍ بعيد جداً يا سيدي بنيامين !! ، لو أنكَ تُحدثني عن السيدة رُوت أكثر و ما الذي حلَّ بها ! ..

جَفَفَ الحاخام شَفتَاه بمنديل مُجاور لفُنجان الشَاي :

ـ أنَا سَوف أُحدثُك عن زوجتي رُوت يا بُني ، و لكن هل الأنين يُكتَب ! ، و إن إستطَعت أن تكتُب الوَجع فَإنني أتمنى أن تَكتُبهُ بالدم ، لأن دماءنَا أضحت مُباحة للأغلبية المُناصرة للعُنصُرية و مَعادَات الإنسَانية ..

شَدني كَلامهُ إلى سُؤالٍ آخَر :

ـ سيدي الحَاخَام و هل تُؤمن بالإنسَانية ! ..

قاطعني بعد أنَ نظر إليَّ بقوة :

ـ إستمع إليَّ جيداً يا بُني ، و عَليكَ أن تَضَع هذا الكلام حلقة في أُذُنيكَ ، خُلاصَةَ العلم الذي إكتسبتهُ من عُلومِ الدينِ و التجارُب اليَومية التي خَرَّ بها كَاهلي هي كَالآتي :

ـ إنَ أي دين أنزلهُ الربُ على الأرض هُو جَاءَ لإصَلاح فئة مُعَينة منَ البَشَر في زَمنٍ ما و في مكانٍ ما ، و في نَفس الوَقتِ أي دين

يحضُ على الفُرقة بين بَني البَشَر أبيضَهُم أو أسودهُم كان أو بين فَصيلٍ مُعين أو حَشدٍ مَا ، فَهذا الدين لا يُستَحق أن يُتَبع .. و أيضَاً إذا وَجدتَ دين على هَذه الأرض يَحضُ على سَل السُيوفِ و إحتلال الأراضي و إراقةَ الدماء و تَصنيف بين أبناءِ البَشَر فهذا دين مُلفق عن الله ..

لأنَ الله لا يَرضَى بالبَغي و لا التسلط و لا الإضطهاد ..

إنها المرة الأولى في حياتي التي أستمع بها إلى رجلِ دين فيهِ من التَسَامُح و المحبة ما يجعلكَ تَخلع لهُ القُبعة و تنحني لحكمَتهِ بكُلِ إكبارٍ و إجلال :

ـ و لكن سيدي الحَاخَام ، كُل قَومٍ يحملونَ رسالة سَماوية يَدعونَ أنهُم شَعب اللهِ المُختَار ، أنَا مُتَأكد بأنَ هَذا الإدعاءِ وصَلكُم ، هل هُنَاكَ مَا تردونَ على هَذا الكَلام !؟ ..

صَمتَ قَليلاً السيد بنيامين ، و لكنَهُ كَان يعبث بلحَيتهِ ، إلاَّ أني شَككتُ بإنهُ لم يلتفت إلى سُؤالي ، و لكنهُ كالذي تَنبه :

ـ إسمع يا بُني ، إنَ هَذا الكَون جُبلَ على الحُب و الرَحمة ، و نَحنُ جَميعاً عيال الله و أحباؤه ، و أقَصد بالجميع أي البَشَر جَميعاً ، إن الذي يُؤمن بالحُب و الرَحمة و يُكن الخَير لجميع البشَرية فهوَ من أحدِ الشَعب الذِي إختَارهُ الله و إجتباهُ لشَعبهِ ..

ـ إذاً سيدي الحَاخَام أنتَ تُؤمن بالسَيد المَسيح و بَقية الأَنبياء و الرُسُل و القديسينَ الذينَ أرسَلهُم الله إلى الأرض :

ـ عَزيزي ، أي شخص يَحمل للإنسَانية دَعوةَ الرَحمة و المَحبة فَنحنُ نُؤمن به و قوانينهُ دُستور لنَا ، فَما عَلينَا إلا أن نَنهج نَهجهُ و نُقدس حكمتهُ ، و نَدعوا أبنَاءنَا إلى التَحولق حَولهُ و حول جادته .. يا رَباهُ ، مَا هَذا الرُجل ، و ما نَوع الحكمة التي يحملهَا ، و إذا كَان فيهِ كُل هَذهِ الرَحمة ، لماذا أعطاهُ اللهُ كُل هذا الكَم من البَلاء و المصائب ، عُدتُ إليه لأُوجه لهُ سُؤالاً من النَوع الثَقيل ، كُنتُ أظُنُ بأنهَا ستلامس عَقيدتهُ ، و لكن بَعدَ الإجابة صدمني :

ـ سَيدي الحَاخام ، على مُرور العُصور ، أغلب من قَرأ تَاريخَكُم إلى هذا الوَقت العَصيب الذي تَتَلقونَ به أقسى أنواع الذُل و الإحتقار من فئة تَدعي بأنها المُخلص للأُروبيين ، كَانَ ذَاك التاريخ مُمتلئ بالعُقوبات من قبل الآلهة ، كالخسفِ و الغرقِ في البحار و إرسال المرضِ كالطاعون و الضَفادع و القملِ ، و ما نَزلتُم في وادٍ حتى حلَت بكُم اللعَنة ، ماذا تعتبر هَذا الأمر يا سيدي ، هَل هي عُقوبة أم عندكَ تَفسير آخر !! ..

سَمعَ السُؤال مني بروية ، و أعجبهُ السُؤال ، فأعادَ من ترتيب جَلسَته :

ـ أعجبني سُؤالك يا بُني ، و هَذا يعني بأنَك في الطَريق الصَحيح في عالمِ الصحافة ..

كانت شَهادة أعتزُ بهَا من حَاخام فيهِ من الحكمة لو حَلت على وَجهِ الأرضِ لعَمَّ الكونُ حُباً و أماناً ، و عادَ إلى السُؤال الذي وَجهتهُ لهُ :

ـ عَزيزي جواب السُؤال الذي طَرحتهُ ، جَواب مفصَلي جداً ، و عليكَ أن تَعرف بأنَ جَميع الفَصَائل الدينية حَلَّ بهم البَلاء و ليس العقاب كمَا تَدعي ، فَإنَ الله لم يَخلق ليُعاقب ، و لم يُعطنا صُكوك الحُرية ليسير الحَائر إلى مُنعطفِ جهنم ، لا كَلا ..

إنهُ البَلاء ، و الإختبار ، و في إعتقادنا و كلما كان البلاءُ شَديداً ، كُلمَا كَانَ الجَزاءُ جميلاً ، و أعظم البلاء ، هُو ذَاكَ الذي يُعطى بلا مُقابل ، من أجل إستقرارِ الإيمانِ في القَلب .. إنَ حُب الله بحاجة على تشمير للقُلوب يا بُني ، و أتمنى أن نَكونَ من الصَابرين ..

هَل هُوَ الصَبر !! ..

و من أجل من ، و لماذا !؟ ..

دائماً نَجد لعواطفنَا المُنهكة شماعة لإخراس ما بنا من تَخبُط ، لجأنا لأبوابٍ عدة ، ظناً منا بأنَنَا سَوفَ نُريح تعبَ أوتارِ آلاتنَا التي تَعزفُ على راحتنَا ..

نَعم لَقد رَوضتنَا رُغماً عن كُلِ المُحاولاتِ بإظهار قوتنا ، و لكَنَنا أمَامَ أول مُواجه أو ثَاني لَطمة أو ثالث صعقة تَأتينَا زحفاً من قَساوةِ هَذهِ الدُنِيا و ما يُحيطنَا من بَشَرٍ أغلقوا عُقولهم للحُبِ و الفِكر ..

فَإنَنَا سَنسقُط ..

ليسَ في جُعبتنَا تلكَ القُوة الهَائلة التي نَتصدى بهَا لزحفِ الشَر و الغباء الذي قَطعَ أوصالَ البشرية ، و صنفهم دَرجَاتٍ و طبقاتٍ ..

كُنتُ أظُن بأنَ الإيمَانَ وهم ..

نَحنُ من صَنعنَاهُ و نَحتنَا صَليبهُ و كَعبتهُ و أحجَارهُ و حائطَهُ و أيقونتهُ ، نعم كُنتُ أظنُ هكَذا ، لا أعرف لما هَذا الرَجُل غَير وجهَة نَظَري بتلكَ النَظرية ، لعلنِي جُررتُ عَاطفياً ، و نُصبت لي الفخاخ ..

هَل أنَا صَحفي !! ..

أم أنا قَد حَملتُ خَطيئة العَقل ، و أتيتُ على هذا القديس لأعترف بخطيئتي !؟ ..

لم تَمضِ خمَس عَشرة دَقيقة ..

و أنا لا زلت أخوضُ معهُ التَجرُبة ..

تَجرُبة التَجريد العَقلي ، و التَخدير المَشَاعري ..

أنا الذي سألتهُ لآخُذهُ معي إلى سُدة العَقل ، فما كانَ منهُ إلا و سَحبني إلى قلبهِ ، كَالذي عصَبَ بَصَري و بَصيرتي ، و أمسَكَ بتَلابيب شراييني إلى النُور ..

أعيشُ معهُ لَحظة من النُور ..

و يَقفُ معي على إطلالِ الذَاكرة ، نَعم لَقد أرهقتهُ الذَاكرة حتى رمت به صريعاً على شَواطئ الثمانينات ، نَعم إنهُ ثَمانيني السن ، و لَكنَ ماضيه مُشبعٌ بالرحمة و الحُب ..

كُنت دائماً أعتقد بأنَ رجال الدين ، لا يصدرُ منهُ غَير الشَرِ ، لأنَ كُلَ أمراضِ التَصنيفِ و العُنصُرية تَصُدرُ من فَتواهُم و قَوانينهم التي يدعونَ بأنَها تَهبطُ من السَمَاء ..

يا الله ماذَا كُنتُ أعتقد !! ..

نَعم إنهَا حَقيقة ..

عندمَا كُنتُ أعيش مع عَائلتي في لُندُن و أحد أحَيائهَا ، آه كم إشتَقتُ إلى لُندُن ، حسنَاً ..

حَلَّ جاراً جديداً بالقُرب من مَنزلنَا ، كُنَا فَرحينَ جداً به ، كَمَا أن أبي قَدمَ لذاكَ الجَار المُسَاعدة ، و أُمي دَعتهُ هُو و عائلتهُ إلى العَشَاء في أول لَيلة لهُم في حينَا ..

كَانت لَيلة رَائعة ..

لهُ من الأبنَاء ثلاثة ، كَانوا بسننَا ، و لقد فرحنَا جداً بصَداقتهم التي ربوا على الصدقِ و الأخَلاقِ ، إلا أنَنَا ذَاتَ أحدٍ حضرنَا القُداس في أحد كَنائسِ الحَي ..

رَاحَ رَاعي الكنيسة يُعطي الأفضَلية لإتباع المسيح ، و من لَف حَول أتباع المسيح فَإنهُ على حق و ما دُونهَم على بَاطل حتى لو كَانَ أتباع المسيح على باطل فإتباعُهم حَق في نَظَر عقيدة ذَاكَ الرَجُل ..

لم يكُن جارنَا و أولادهُ يحملُونَ الفكر الإنجيلي أو المسيحي ، و لكنهم كانوا ذُو خُلق عالي جداً ..

تباً ما أقبح التصنيف ، و زَرع الفتن ..

هَل يُريدنا أن نكره جَميع البَشر إرضَاء للمسيح ، إن كانَ المسيح و غيره من القديسين يدعون إلى التَصنيفِ و إعطاءِ الأحقية بالتَفضيل لأبنَاءِ طَائفتهم فَتباً لهُم و لدينهم ..

الإنسانية ..

أُؤمنُ بهَا ، رُغم آلامهَا و تَمزُقِ وحدتهَا ..

ما وَجدتُ رَجُلَ دين إلا و دعى إلى أطماعهِ ، و فرقَ وحدةَ البَشَرية ، و نَشَرَ الأمراضَ و الفتن ، و أمرَ بالقتلِ و التنَكيل ..

لا يُوجد دين في العالم ، إلا و بينَ دَفتي قَوانينه ، و شَرائعهِ دَعوة للذبح و القَتل و التَشريد و التشتيت ، و إذا سألتهُ :

ـ لماذَا هَذا الحقد لَغيرِ دينكَ !! ..

الجَواب أتفه مما يتصورهُ عقلكَ ..

ـ إنها أوامر إلهِية ، أمرنا بها الله ، كي نُحافظَ على شَريعتهِ و قُدسية أوامرهِ ..

ما أقَبحَ أن تكونَ سيافاً على أرض الله ، و تجلد و تَقطع الأوصَالَ و تَسرق بمُسمَياتٍ عدة تَحت قَوانين كَاذبة منسوبة إلى الله ، و كل هَذهِ الجَرائم بسم الله ..

خَلصنَا اللهُ منكُم أيهُا القتلة ..

متى تَعيش البَشَرية بسلام !! ..

متى تُفككُ شيفرات الشَرائع التي تَستَهدف الأبرياء ! ، متى نَصل إلى كَلمة و عملٍ و فعلٍ تَدعو إلى الرَحمة و السمَاحة و المَحبة .. كُنتُ ولا زلتُ أعتقد بأنهَ الصراع الذي يَدور على كوكب الأرض بينَ الأُمم التي هي بالأصَل بينهَا صلة قَرابة و صلة رَحمٍ بالإنسانية و الهواء و التُراب و الحَياة .. إن هذا الصراع هُو مُشَاحنة و مُطَاحنة من أجلِ المَطَامعِ التي فوقَ الأرض و في باطنهَا ، و لَكن دُعاة الكذب من طيالسة و أحبارٍ و مَطَارنة و رجالِ دين من كُل طَوائف العَالم خَدعوا البَشَرية عندمَا قَالوا :

ـ نَحنُ نقاتل بأوامر من الله ..

هل يُعقل أن رُسل الرب مَزقوا البشرية ! ، هل يُعقل بأنَ سبب هذا الخَراب الغَير مَنطقي هُم أولئكَ الذينَ إتبعناهُم طيلة آلافِ السنين عملوا ليلاً نَهَاراً على تَعطيل آلة العَقل و تَخدير المشَاعر عن مُهمتها الإنسانية و الحسية التي تَصُبُ في قَالبِ الرَحمة و حُبِ الإنسَانِ لأخيهِ الإنسَان ..

جَميعنُا لَدينَا أدمغة نُفكرُ بهَا ..

جَميعُنَا محمومونَ بالحُبِ و الرَحمة ..

جَميعنُا مُعفرونَ بالقيمِ و الإنسانية و الأخلاقِ ..

و من لم توجد به هَذهِ الصفات ، فَالبذرة مَوجودة ، و لكنهَا في تُربة القَلبِ ، إنهَا بحاجة للسُقيا و العناية ، بعيداً عن أعاصير الفتنِ و التَفرُقة و التصنيف ..

لا تحجبوا عُقولكُم بخطَاباتِ المنابِر و المنصاتِ التخديرية ، فالتجارب خير إثباتٍ بزوال دُعاة و رُعَاة الموتِ ..

و لكن بشكلٍ مُقنن ..

لا أريد الجَنة ..

نَعم لا أُريدُهَا ، إن كانت على حسَابِ الدماءِ ، و تَشتيتِ الابرياءِ ، و لا صُكك الغُفرانِ و إن كانَ خَلف كَواليسهَا بُغضٌ و أمراض و شَتات و حقد ..

لا نُريد الجنة ..

فقط دعونَا نَعيشُ بسلام ..

لقد قَالوا فيما مضى لفيفَ المُؤمنين :

نَحنُ ليسَ من سُكَانِ هَذا الكَوكب ، نحنُ كوكنا الأصلي في الجَنة..

دعني أكتبُ لك و نَحنُ في القرن العشرين بأن هذا الكلام صحيح مئة بالمئة ، نعم إنهم ليس من هذا الكوكب ، و ليس سُكان الكوكب الأصليين ، لأنَ الذي بنى قيمه و أخلاقه و عقيدتهُ على الخُرافة و تعطيل آلة العقل ، سوف يقول لك أيضاً :

الإنتحار واجب ، حتى تَصلَ إلى كوكبكَ الأصلي بسُرعة ، يَقصد الجَنة التي صمم قُصورهَا في مَنطقه الأعوج ..

أُمم بشرية ، و أطنان من الأدمغة تناسَت مُهمتها الأصلية ، و راحت تُصنع أسلحة الدمَار الشَامل ، لتقي على ما تبقى من حياة .. بتُ أشعُر بأنَ عَالم الغَابات أرحم بكثير من عالم البَشر ..

لا زَال في جُعبة الحاخام بنيامين المَزيد من الحديث لم يُخرجُه بعد:

ـ هل هُناك ما ستُخبرني بهِ عن زَوجتكَ سيدي !؟ ..

أخَذ نَفساً عميقاً و تَركَ مكَانهُ زفيراً مَشحُونا بالهُموم :

ـ هَل تُريد أن أُخبركَ عن خَرابها الأخَير ! ..

كانَ ضرباً من الجُنون أن تَتحدث عن ألمكَ ، و لكن ضمنَ المَعقول و المَنطق :

ـ إن كُنتَ تُريد سيدي !! ..

على ما يبدو عندما تَتحدث عن شَخصٍ غَائب تُحبهُ ، و أنتَ لا تَعلم أسوفَ يعود أم لن يعود ، كَأنمَا تشرُط جُرحاً قَد إلتأم بالأمس:

ـ حَسناً بني .. رُوت كَانت مُهمتهَا عَظيمة ، و لَكنني آخر من خَسرتُها و لا أعلم إن كانت سوف تَعود ، كما تَعلم نَحنُ في عَام 1942 للميلاد .. أليس كذلك !؟

لَقد تَعجبتُ من سُؤاله عن العام الذي نَحنُ فيه :

ـ نَعم سَيدي هَذا صَحَيح !! ..

و لَكن مَا الرَابط بينَ أرقام العَام الذي نَحنُ فيهِ و بينَ زوجته ! :

ـ إن زوجتي رُوت و قَبل هَذا الإجتياح النَازي الذي يستَأصلُ أغلب أراضي أُوروبا كانت مُهمتها إنسَانية بحتة ، لَقد بنت من مالها الخاص الذي ورثتهُ عن أمها مُجمعاً للأيتَام و العَجَزة في أحد ضَواحي فيينَا ، و كَان لها صديقة من ألمانيا تُساعُدها في إدارة المُجمع الخَيري .. صَدقني يا بُني بأنني كُنتُ و لا زلتُ فَخوراً بهَا ..

قُلتُ في قَرار ذَاتي مَا هَذهِ العَائلة المَحشوة بالخَير :

ـ نعم سَيدي و ماذا أيضَاً ؟ ..

كُنتُ أكتُب كُلَ حَرفٍ من كَلامهِ لا أُريد أن تُفلت أية كَلمة :

ـ كانت رُوت قَلبهَا نَقي و طَاهر جداً ، و لم يَكن لديهَا سياسَة النفاق و التورية و التقية ، عندما تُجالسُهَا و تَستَمع لنَقائهَا كَأنمَا تَفتح كتاباً نَاصعاً لم يُكتب بهِ شَيء و لم تَتَلوث بثاني أُكسيد الحبر.. كُنتُ دَائمَاً أُوجههَا و تَحتَفظ بخُصوصيتهَا ، و لَكن صَاحبَ القَلب الطَيب من المُحَال أن تَضبط لسَانهُ و أفعَالهُ ، و حَتى الأولاد كانَ لهُم نَصيب من هَذهِ الطيبة و نُعومة القَلبِ و صَفائه .. جميع من في المنَزل عَاطفيون جداً ، و قَد تَعبتُ معهُم في ضَبطِ إيقاعَاتِ قُلوبهم ، و لكن كَانَ هَذا الأمر يُعجبُني جداً بهم، و لكن إن زادَ هَذا الأمر عن حدهِ سَوف تَحلُ كَارثة و بسبب طيبة قُلوبهم سَوفَ يَفقدونَ جميع ما يملكون ..

قَاطعتُهُ :

ـ سيدي لماذا لم يكُن لكَ نَصيب في تَربيتهم و ضَبط خَطواتهم و حركاتهم !! ..

تَدخل قَائلاً :

ـ بُني ! ، هَل فَهمت من حَديثي أنَني لم أقم على تَربيتهم ! ، منذُ الصغر كُل شَخصٍ لهُ نَصيب من المُكوث معي أياماً و سنيناً ، و

حَتى في حلي و ترحَالي و تجارتي و تَجارُبي .. و لكنَ طَبعَ أُمهم غلبَ على طَبعي ، أنا مُمتن لزوجتي رُوت كَثيراً ..

لَقد نَزلت دمعة السَيد بنيامين ، و لكنها كسيلٍ مُنجرف ، كدتُ أن أقولَ لهُ هَون عَليكَ سَيدي أرجوك ، إن دُموعهُ كَانت كَخَيطٍ مُستَقيم و بالجُملة .. شَعرتُ بالأسَف عَليهِ ، كَانَ يُعطِيني المَعلومة بالتجزئة ..

أنت يا من تقرأ ..

دَقيقة صَمت أمَام هَذا الكم العَظيم منَ الإنكِسار ..

دَقيقة كَتمٍ لصوت للحَياة قُبالة نَزعتنَا الغَير إنسَانية ..

لا تَرموا بأوجاعكُم في فُوهَةِ القُلوب الملئة بالوَجع ، فَهُنَاك قُلوب فيها مَا يَكفيهَا من الإرهَاق و التعب ، و أيضَاً لا تُلقوا بفَشَلكُم أمَام أبواب النَاجحينَ فَالفارق الذي بينكُم و بَينهُم هُو الجدُ و الإجتهَاد .. بينما كُنتَ فَرحاً و مُبتَهجاً كَانَ غَيرُكَ في قمة التعَاسَة يتلوى بُؤساً..

هونوا على غَيركُم من المُتألمين ..

فيهم ما يكفيهم من الضَجيج ، أخرسوا مَباهجَكُم و مَواجعكُم في حَضرة شُرودهم عن تَفَاصيل السعادة ..

السَعادة ..

الكَنز الذي يُنقبُ عَليهِ الجميع ، مَع أنهَا مَوجودة في أدقِ أجزاءِ حَياتكُم ، سَتجدهَا في إنسَانيتكَ و مَحبتكَ لَغيركَ ، بالكَلمة الطَيبة و الإبتسامة النَقية ، و إغاثَة المَلهُوف ، و عدمِ إنتظارِ الشُكر على المعروف ، و شُكركَ لمن صَنعَ معكَ إحسَاناً ..

سَتجُدهَا ببركَ لمن أنجبكَ و سَهرَ على رَاحتكَ حَتى أضَحيتَ رَجُلاً أو أُنثى يُتكلُ عَليكَ في وَقتِ الشَدائدِ ، سَتجدُهَا في إزَالة الأذَى عن مَمشى النَاسِ و إستبدالِ مَكانهَا زَهرة وَردة شَجرة شَتلة جملاً حُباً و شَوقاً و عشقاً ..

حَتى تَحلَ في مَضَارِ رُوحكَ السَعادة ، عَليكَ أن تَجتهد لتحصيلهَا ، فَقط البنية الصَادقة ، و عَملِ الخَير الذِي لا تَنظر منهُ مَصلحة شَخصية أو مُقابلاً مَادِياً ..

أهمس في آذَان من حَلَ بهم الأنَين بكلمة تُسندُ إنكسَارهم ، قَوّم عُودهَم المَائل ببسَمة ، إصرف عن أرصفةِ هُمومهُم بنَغمة .. نَغمة الأملِ التي أعادت للعازِفِينَ أحلامهُم و جمال سَيرهم .. الحياة لك و لَهُم و هَذا الكَوكب الجميل يَتسع للجَميع ، و أيضاً هَذا الأُوكسُجين لكُل من لدَيهِ رئة حَيوانا كانَ أو إنساناً ..

إستغنى من إتخذَ الماء مسكناً عن هَوائكم ، تَخفيفاً على مَطَامعكم ، و حتى من وَجدَ جَوف التُراب مُتكأً لحُطَامِ عظامهِ كأنهُ قَالَ لكُم قبل أن تُوسدوهُ تَحتَ اللحُودِ :

لا تَقتلوا و تُريقوا الدمَاء ، فَهذهِ الحَياة قَصيرة ، قَصيرة جداً ..

هَل هي قدسية محبة ! ..

شَرائع عدة أوحت إلى أُناسٍ فيهم من القُدسية ما لم نَعرفهُ إلا في كُتب التُراث العَقائدي ، فكما الأشرار وَرثوا شُرورهم كَادرٍ عن كَادر ، كذلكَ الصالحين الذين وثقت بهم البَشرية و سلمتهُم عَقائدهم و عُقولهم و حتى عَواطفهم أغلب بني البَشر الذين يَبحثُونَ عن الصَلاح ..

نَحنُ بني البَشَر ضَحية التَخيير بينَ الخَير و الشَر ..

نَبحثُ عن وجودنا ، لنُثبت لكوكبنا بأننا دُعاة مَحبة ، و لكنَ بَعد زَمنٍ من الصراع الغَيرِ مَنطقي ، قَدمنَا لهَذا الكَوكب طَبقاً يتَقاطُر دمَاً فَقط لأنَ مطامعنا أكبر بكَثير من مَصلحةِ هَذهِ الأرض المسكينة ..

لا تَلوموا فَلسفة الأرض عندمَا تَأتي بفَيضاناتها و زلازلهَا و أعَاصيرهَا و كَوارثها الطبيعية عن هَذهِ الهَجمة الَشرسة !!

فَقط لأنَنَا لُصوص و لكَن بمُستندَاتٍ تَمليكية ..

نَعم .. طالما أنَ هَذه القطعة من العَقارِ لكَ فَأنَت حُرٌ بهَا ، إلا إذا كُنتَ تَحتَ حُكم دكتاتُوري فَأنتَ العُبد الذَليل الذي رَمى بكَ الزمَان لتكونَ وَجبة شَهية للظَلمة ..

نعم أنتَ ذَاك العَبد ..

و نحنُ أيضاً مثلك شُركَاء بالعُبودية ، لَهُم الشُموع و كَعكَة التَبجح و لنا المَذلة مَا دُمنا نُصفقَ لقذارتهم ، أنتَ مُجرد من حقوقكَ حتى تُثبت لَهم طَاعتكَ و نَحنُ لسنا أقل منكَ مَذلة أيضاً رَضعنا نَصيبنا من الطَاعة القَسرية ..

إذاً زوجتكَ رُوت .. صَاحبة القَلب البريء يا حاخام الحُبِ في عَاصمة المُوسيقى ، و أنتَ سيدي في سنِ التَوابيت المُعدة لَشيبتكَ، رَتب خَيبتكَ بجَانبِ أكفانكَ و إهتزاز النَعش ، و أطوي الذَاكرة على شَاهدة إسمكَ العَقدي ، و لمم شَتاتَ مَاضيكَ أمَام أقربَ عابر سَبيل ..

إذاً إنها رُوت ..

ـ بني ، لم أكُن أعتقد يَوماً بأنَ صديقة هَذا الدرب المُوعر بقطاع الطَريق سَتُسلمني لما تَبقى من عُمري ، لن أقولَ لهَا خَانت الوعود و العُهود ! ، سَأقول لها سَامحيني يا رُوت لأنني لم يَكن لَدي المَجال لأُنقذكِ ! ..

ما هَذا النوع من الحُب يا من تمررون عُيونكم عَبر سُطور هَذه المأساة ؟ :

ـ هَل تُحبها سيدي !! ..

مدَّ يَدهُ إلى جَيبه ليُخرج منديلهُ ، كَانَ منديلاً مُموهاً كلونِ السَماءِ السَماوية ، فَاحَ عُطرهُ النقي في حال فك طَياتهِ السُباعية ، و راحَ يمسح دُموعهُ ، كانت دُموعهُ تَفضح حُبهُ لمرأة كَانَ بي فُضول أن أعرفها :

ـ نعم أُحبُها ، كلمة الحُب التي ما طوى النهارُ نُورهُ إلا و قُلتُ لها: أحبكِ .. لقد أفنيتُ نَصائحي على مَسامعها في كُل يَوم و أنَا أُرشدها أن لا تَعمل في العَمل النضَالي الذي قَاسَاهُ يهود أوروبا من النظام المُحتل النازي .. و لكنها المسكينة لم تَكن تُصغي إلى نَصَائحي و لا لخوفي عليهَا ..

قَاطعتُه مُتطفلاً :

ـ و لكن يا سَيدي ما الذي جَرى معها حَتى إنقطع الوصل بينكَ و بينها !! ..

ـ بُني أنتَ تَعلم بأنَنَا نَعيشُ في محنة عظيمة في القرن العشرين ، بعد أن قيدوا أغلب اليهود و سُحبوا إلى مُعسكرات الموتِ كما يقولونَ لها .. كَانت رُوت تُخبئُ شُبان اليهود في بهو دارِ المُسنين.. لم تَستمع إلى نَصيحتي أبداً .. طَبعاً كَان قلبي يتمزق على هَؤلاءِ الأبرياء ، و لكن نحن جَميعنا مُتهمونَ بالعمالة .. هَذهِ العمالة التي لم أفهم ما معناها إلى هَذهِ اللحظة .. راحت زوجتي

رُوت تَتستر على أولئكَ الفتية حَتى وَشَت عليهَا صَديقتها الألمانية..

ـ و مَاذَا حصل وقتها !! ..

لم تتوقف الدُموع عن النَزفِ ، إنهُ نَزف المُعاناة و الفَقد ، إنهُ نَزف النَقصِ من الحُبِ ، كيفَ لكَ أن تتخَيل رجلاً عَاشَ قصة حُب ستينَ عاماً و في لَحظةِ ضَعف يُفرق القَدر بينهُ و بَين نصفه الآخر في لَيلة سَل فيه الذئبُ مخالبهُ على نُحور الخراف الضعاف و على مَرأى رُعاة المُجتمع الدُولي !! :

ـ الذي حَصَل بأن طَوقت عصَابات الفكر النازي دارِ المُسنينَ ، و جميع الناس تُشَاهد سينارو الذُل أمَام تلك الدار مُشمرينَ نَظراتهم و شَهادَاتهم ليتَقاسموا مَشَهد الضَربِ و التنكيل بالأبرياء ، و نَزلت تلكَ المليشيات بجميع عتادهم الإجرامي و أسلحتهم البيضاء ، و شَنعوا بهم ضَرباً بالسيوط و العُصي و الحديد نساءً و رجالاً و فتية ، لَقد سُمعَ صَوت الضَربِ و الصُراخ في جَميع أرجاء المَعمورة ، و لم يُفرقوا بين صَغيرٍ و كبير .. جُمع جميع من في الدَارِ أمَام السَاحة الخَارجية للدار و حتى المُسنينَ الذين لا طاقة لهُم في حمل قواهم مع بَقيةِ الفتية ، و للأسف حتى زوجتي رُوت كَانت مع ذَاكَ الجَمع ..

كُنتُ أُدون الشهادة التي أستمع إليهَا لأولِ مَرة ، و لا أُخفيكَ سراً كُنتُ في حالة من الصدمة ، و لكأنَني أول مرة أستمعُ إلى سيناروا سنمائي من النَوعِ الأكشن ، آلمني كَلامه جداً :

ـ كَان الجَميع يتأوهُ و يتَألم يا بنُي ، و الدمَاء تَسيلُ من جباههم بلا حَياءٍ و لا رحمة ، فُقدت الرَحمة عندما سَلط عَلينَا القَدر هُؤلاء المُجرمين ، صرخ أحد الضُباط النَازِيين بهم أن إصمتوا : سُكووووووت .. لا أُريد أن أستمع و لا لأي صَوت ، صَمتَ الجَميع و لكن كَان صوت عَجوزٍ يَعلوا شَيئاً فَشيئاً ، لم يتَحمل الضَرب و التَشنيع الذي لَقيهُ من همجية الجُنود الذين سُحبت من قُلوبهم الرَحمة ، بَدأ يَمشي ذَاكَ الضابط القذر بين صُفوف المَظلومينَ حَتى وَجدَ صَاحب الصَوت الصَادر بتأوهِ ، صَرخ الضَابط بهِ أن إخرس ، و لكن كَانَ الألم فَوق كُل أمرٍ ، لم يصمت العَجوز ، فَلقّم الضابط مُسدسهُ و أفرغ في رَأس العَجوز كُل الذخيرة الحَية حتى سَقطَ العَجوز أرضَاً غَارقاً بدمائهِ .. أمرَ الضَابط جُنودهُ بأنَ يُرفعَ حبلاً على قَنطَرة المدَخلِ لدارِ المُسنِين و يُرفع رأس العَجوز على مَرأى النَاس ليكونَ عبرة لمن لا يلتَزم الأوامر و الصَمت ، صَرخ الضَابط قائلاً أمَامَ وُجوهِ هؤلاء البُؤسَاء :

ـ من لا يَلتزم الأوامر فَإنَ ذَخيرتنَا و نظَامنا سَينتزعُ أرواحكُم و لن نَستَهينَ بِأية خَللٍ مَارقٍ يُريد أن يُهدد قَوميتنَا .. فَعليكم بالإلتزامِ و السَمع و الطَاعة ..

رَفعَ الضَابط يَدهُ القَذرة و ألقى التَحية المَعروفة التي تَشي عن ولائهِ القَذر للزفِ النازي ..

لأنكَ أنتَ ..

مَسلوب منك إكسير الحَياة ..

فَقط لأنكَ تَحتَ مَخالب التَقنين المُمنهَج ، و مَسلول أمَام ضعفكَ جَميع سهَام الكَراهية ، و مَنهُوش أمَامَ مُجتمعٍ يَتمنى فَناءكَ ، لا تَعلم من أين أتَى هَذا الكَم الهَائل من الحَقد !! ..

بلى أنتَ تَعلم ، و لكن تَتَخفى بالكَلمات و أحَلامٍ صُنعت على مَقاسِ خَيبتكَ ، و ذَاكرة طُهيت على نَار غَيركَ ، كانت تُطهى في أفرانِ كَارهيكَ ، لأنَ مذَاقكَ مُعد لقسَوة قُلوبهم ، طَبعاً هَذا إن بقي لَهُم قُلوب ..

عش يا سَيد الزمن الفَارغِ من الأحَبة على صَدى المَاضي ، و لا تلتفت إلى القَادمينَ من ملح الجراح ، أنتَ جُرحهُم النَازف من وَترِ الكمنجاتِ ، أينَ ضَجيجهم الخَافت من الأُمنيات ..

يا سيدَ الرَأسِ الغَارقِ بالشَيب ، و أنتَ بهَذا السِن من الألم مَا هي أمانيك !! ..

أنتَ المُضرمُ بقلة الحَيلة ، أينَ شرايين أعصابكَ ! ، أينَ فُتات قواكَ ، أين تحملكَ المَشحون بالأمل ، يا آمال الأُمنيات التي طوت تَحتَ وسادتها خَيبة تلو خيبة ، شَمّر عن عجزَكَ و لملم دُموعَ يأسكَ ، ثمانونَ عاماً من الحُب و أنتَ تَقتاتُ رؤياهَا ، هَا هي أُمُ

البنون واقفة بينَ طوابير التُهم ، ككلمة مَفقودة من إنسانيتها ، و كُل إشَارات الخَيبة مُوجهَة إليها ، مَا تُراكَ صَانع مع قُطعانِ الذئاب !! ..

حمامة مكسورة جناحاها أنتَ تُرفرفُ بتَأوهكَ ، مَعزولاً عن سرابِ حُبكَ ، تُطاردُكَ رَصَاصات صَياديكَ ، اجمع في سرداب حُنجرتكَ غَصة خَطواتك و انكساراتك و شهقةَ الروح و اقذف بصدى النَار صَارخاً :

أينَ أنتِ يا رُوت !! ..

سَتسمعُ صَدى المَاضي بخَيالِ إبتسامتها ، بلمعة الزَيتِ المدهونة على ضَفائرها ، بحُمرة خديها الوَرديتين ، بردَاء بساطتها المكسو للأحلام ، بصوتِ صباحهَا قَبلَ عَبقِ القَهوة الراحلِ معَ فُصولِ السَنة ، بغَفوةِ الخُبز المُلتصقة تَحتَ صاجِ أفران الشَوق ، بانحناءِ ظَهرها الذي قَصم احدوداب لغزها ..

أحبُها يا قوم ..

ـ سَيدي الحَاخام هَل أطلبُ لَكَ مزيداً من الشاي أو القهوة !! ..

جَفَف دُموعهُ على حَياء :

ـ أُحبُ إحتساء شَايها ، كَانت تُعد لي الشَاي مسَاءً مع كعكها و شَتات ما تَبقى من قواهَا .. شُكراً لَك بُني لقد احتسيتُ كَثيراً منَ الوَجع ..

ـ حَسنَاً سَيدي .. هَل عَرفتَ إلى أين سَاقوها ؟؟

لا تَسأل الوَجع كَيف يَحلُ ضيفاً في صُدورِ العاشقين ، لكَ حياكة الكَلمات على سُطوركَ الوهمية ، و لَهُم الأنين المَحبوس في جُرحِ الفراق ، هَل تَعرف مَا معني أن يعيش معك الحُب أربعين عَاماً ثُمَ يرمي بِكَ على أرصفةِ الفناء ، يا سيدي جَفف لُعابَ ضَعفكَ ، و ضَع أحمالكَ أمَامَ رحمة الله ..

نعم .. هُو الله ..

يرى لظى الأنين ، و نَرى كَفَ رَعايته كيف تُربتُ على أوجاعنا، قُلتُ لهُ آنفاً بأنني أنا مَوجوع يا الله ، أسعف شَقائي بلطفكَ يا لطيف السر الخفي ، و استر على خفةَ الجراح و دبيب الإغاثات.. إنها لَهفة الغَوث يا إله الغَوث ..

ـ بُني .. لَقد سَاقوا لي شُهود تلكَ الفَاجعة التي حَلت بزوجتي و من كانَ معها من أبرياء حكاياتٍ و رواياتٍ عدة ، و لكن تباً للذَاكرة التي أضحينا ضحاياها ، و لأننَا مُعلقون على مشجب الذَاكرة فَإنَ

الخَيال أخذ مني ما أخذ من أحداثٍ لم أرها بأُم عَيني و لكنها شَجت في منتصَفِ الصَدرِ جراحاً لن تَلتئم حتى تَعود رُوت ...

ـ هَل عَرفت عَنها شَيء يا سَيدي !! ..

ـ يا بُني أنَا على قَيد البَحث مُذ أن اختفت ، لقد قالوا لي الرُواة ، و بعد أن عُلق ذَاكَ المُسن المسكين على مَشنقة آخر سينارو لهذه الحياة ، أمَرَ ذَاكَ الضابط القَذر أن يَخلع جَميع من كَانَ تَحت قَبضَة المُجرمين مَلابسَهُم ، كَان أولئكَ الأبرياء يرتَجفُونَ خوفَاً ، لا تَسأل مَا هُو الذنب ..

الذَنبُ أنهُم بَشَر كَبقية البَشَر طَالبوا بحُقوقهم المَشرُوعة ، حقَ الدين و حَق الرأي و حق العيش بسعادة ، و لا أعلم هَمّ من سوف أحمِل !! ..

أتعَس شيء أن يُنهي الله حياتك و أنتَ تَحملُ همَّ أُمة ، تباً للشرِ الذي وضعنَا على محكِ الإختبار و نَحنُ على مَشَارف المَوت ..

لن تَستَطيع مُخَالفةَ أوامرهم ، فَهُم الآن من يمتلكُونَ بقايا حُقوقكَ كَحياتك و مَوتكَ و مُستقبلكَ ، و لأنهم مُجرمون فأنت مسحوب منك كَافة مُقومَات الإنسانية ، و الخَارج عن بسَاطهم أي أنكَ أنهيت حَياتكَ بكُل بساطة ..

إنَ ذَخائرهُم وجدت لنَا ، و صُنعت من أموالنَا ، و لُقّمت بأيادي أبنائنا ، و أُطلقت لحماية مصَالحهم و أطماعهم و أوهامهم ، إنهُ المَدّ المتهاذي على أكتافنا ، فَنحنُ يا بُني ضحاياهم بل ضحايا نوايانا الحَسنة ، أتمنى من التاريخ أن لا يرمي بأقلامه خَلفَ جُثثنا ، و لا يُغرق حبه على وجعنا ..

أتمنى من التاريخ أن يكتبنا كما نَحنُ الآن ، بانهطالنا على سُطور المذابح و المحارق و مُعسكرات الموت ، فَنحنُ الآن يا بُني مُجرد عنوان يترصد المُشفقون على مَوتنا البطيء ، الجميع يقرأُنا و لكن بضجرٍ ، الجميع سئمَ من تَتبُع آثارنَا بمَللٍ ، لم يعُد أحد يَقفُ على تفاصيلنا الصَغيرة لأنَنا شبهُ معروفين للقاصي و الدَاني ، و حَتى يُرمزُ لكَ برمزِ الكَراهية يُحجمونَ من قدركَ و سَنكَ حتى وَ لو كُنتَ على مشَارف الرَحيل إلى الله ..

نعم الله ..

الرَب الذي تَوسدنَا بألمنا أعتابهُ ، و لم تفتني صلاة في صَومعتي مُذ أن عرفتهُ ، سُؤال أردتُ أن أسألهُ لله ، الرب الذي أطعتُ أوامرهُ دهراً ، و بعد أن تلاشَى جَميع من حولي من أبنَاء عَائلتي ظُلماً و قهراً ، أردتُ أن أَقول لهُ :

ـ مَاذا فَعلنَا حَتى حَدث معنا كُل هَذا البلاء !! ..

نَعم إنهُ الله الذِي لم يأتِ يوماً إلا و أطرقتُ رُوحي لإرادتهِ ، لماذا لم يستجب لإرادتنا عندما أردناهُ !! ..

نَعم إنهُ الله ..

إنهُ الحقيقة الكَاملة في عَقائدنَا التي لن تَغيب و لن تفنى ، فَهذه طَبيعة البشرية التي جبلهُم اللهُ عليهَا ، يلجأون إلى المكان الذي يُريحونَ تعب أرواحهم إليه ، لم نَجد مُتكأً و لكن وجدنَا رباً قَدرنا و قَدسنَا و أعطانَا ما لم يُعطى أحد منَ العَالمين ، و لكن كُنتُ وقَافاً أمام هَذا التفضيل ، و كان رفضي للتفضيل رُبمَا سيكون خللاً لعقيدتي ، و لكن العَقل هُوَ البوابة الرئيسية لفهم الفَلسفة الرَبانية لما يُشير إليهِ الله ..

فالمنطق يقول بأنَنا جميعُنَا بَشر سواسية ، و كَافة أبواب الخَير و الشر مُتَاحة للدُخول إليها من غَير تذكرة عَاطفية ، فقط لأنَكَ جُزء من هَذا التَكوين ليس من الواجب عَليكَ أن تَتبع مَا يُملى عليك ، و لكن يَجب أن تَكونَ وقافاً أمَامَ عتبة العقل ..

إنَ التجرُبة علمتنا الكثير ، و طَالما أنَ الآلهة أتت لتُعزز السلام و الحُب بين أبناء الإنسانية فإن قَوانينها ستتوافق مع مقياسِ العقل و المنطق ..

العَاطفة مكانهَا ما بعد الإيمان المُطلق ، و لكن يَجبُ عَليهَا أن لا تَتعدى حُدُود العقل حتى لا نَنسلخَ من إنسانيتنا و نُصبح أشراراً يُدافعُون عن الله باطلاً و بُهتاناً ..

يُعجبني الوقافون أمامَ مَنهج النص ، و رَده و تفنيده إن كَانَ يضرُ ببقيةِ البشَرية ، و لكن السُؤال الذي أطرحهُ دائمَاً على طَاولة المُفاوضَات بيني و بَين نَفسي :

ـ مَتى سَوفَ يَفهم البشر بأنهَم إخوة !! ..

سوف يأتيكَ رجل شبعان مُنتفخ الغُرور مُعطلاً لعقلهِ مُقدماً لعواطفهِ مُنفوش القامة بينهُ و بين غَباء من حوله صَفقة عَريضة من المَصالح يقول لكَ :

ـ إنَ ديني هُو الذي يجمعني بإخوتي ، و ما خَالف ديني فليسَ أخي! ..

هَل يُعقل أن نتهم حَواء بالخيانة ! ، من المُؤكد الذي يتَهم أُمهُ بأنها أنجبت بقية إخوانه زنًا فلَقد وصلت بهِ الحَقارة لدَرجة من الكَراهية لا تَتصورهَا ..

و أيضاً الذي يُعادي بقية البشرية بتُهمة أنهم لا يرتدونَ حذاء دينه فهذه الأنواع من الجراثيم هيَ السببِ الرئيسي لإحداث الفتنِ على كوكبِ الأرضِ و أيضاً أول مُجرم للإنسانية ..

فمن الحمَاقة أن نُلقي القَبض على مُجرمي الحُروب و نُفلت ذَاكَ المكروب الذي كَانَ يَزرع الفتن في أحشَاء المُجرمين ..

إنَ الفَساد بدايتهُ فكرة ..

فكرة رُبمَا تَجدها صغيرة جداً ، و لكن خلفها قضايا كبيرة لو أمعنتَ النَظَرَ إليها رُبما سَتودي بحياةِ ملايين البَشر ، و ها نَحنُ كَما تَرى ضَحايا فكرة اقتنع بهَا الأغبياء و أنصفها أرباب العُقول..

و أنت أمام عُيون الوطَن المنشور للهوء الطلق ، نُجرد من ملابسنا كَبقَية الحيوانات ، و يُسَلخ جلدُنَا أمَامَ مَذبح الحَياة ، و لا يُفرقون جلاديكَ بأن تَكونَ رَجُلاً أو أُنثَى ، أو صغيراً أو كبيراً .. هُم مُتَشربونَ ببغضكَ ، وجدوا لإذلالكَ ، هُم هُنَا لسحبك من كُراعكَ ، ليمسحوا أحذيتهُم بدمائكَ ، و جلدكَ مُهيئة لطُبولهم و عَظامكَ عَلفاً لخنازيرهم ..

أنتَ الضَحية ..

و أنتَ مُرغمٌ على أن تَتَجرد من كُلِ شَيء و حتى من أبسط الأمور كاسمكَ مثلاً ، كُنَا نَظنُ بأنَ البَقاء للأخيارِ المُشبعونَ بالخير ، و لكن الذي أفسدَ منطقنا هو طيبة قلوبنا و اعتقادنا بأن البقاء للخير و الفناء للشر ، و لكن و بعد أن يصل بي الحال إلى مُنعطفِ الثَمانين تُبدلُ الأرضُ بالمُجرمين الأشرار ، و يُسحب البُسطاءُ و المسَاكين و الضُعفاء فَقط لأنهُم ينتمونَ لرسُولِ الصَمتِ و الضَعف !! ..

كَانت خَيبة عَظيمة من صديقة زوجتي الألمانية الأصل عندمَا وَشَت عليهَا للنازِيين ، لو كَانَ فيهَا ذَرة كَرامة من الصَداقة و الوَفاء لنَصحتهَا ، لهمست في أذنهَا أن مَا تَصنعيهِ هُو ممسكٌ لاقتيادكِ للهلاك ..

و لكنَ الذي رُوضَ على كَراهية أضدادهِ و الذي شُرّب من وَحلِ الحَقدِ و البُغضِ فَلن يُصلحهُ الدهَرُ أبداً ، كنتُ دَائما أقول في ذاتي كَيف عندها الجُرأة هذهِ المَرأة أن تَجعل في عُنقها كُل هَذهِ الأرواح!! ..

كيف تَستطيع النوم !! ..

و لكن يا بُني العَالم كُلهُ يَنظرُ إلينَا بملٍ و لَكأننَا صُحف و طواهَا النسيان ، و نَحنُ نُسَاق إلى المَحارق التي رُبمَا سَأُساق إليهَا يَوماً مَا ، كُنَا نسَمعُ في أفرانِ المَوتِ شَخير الأُمم و أصوات قَرعِ كُؤوس نَخبَ خَلاصهم منَا ! ..

قَالَ الشُهود لَيلتهَا ، بأنَ جَميع من كَانَ مُصطَف أمَامَ جُنود المَوت قَد جُرد ، و كُشِفت العَورات ، أمامَ الشَاشَة الزمنية للإنسانية ...

تَخيل أن تَقفَ في مُنتَصفِ أحدِ الأسواقِ الغَارقة بالبشَر ، و قُد عُريت من ثيابكَ و أنتَ مُرغم عنك ، و جَميع من حَولكَ من أحبة يَنظرونَ إليكَ شَامتين .. هَل حَقاً أحبة أم شَامتِين ، دَائمَا عَليكَ أن

تَتَعلم من التَجرُبة ، فَهي وحدهَا كَفيلة بأنَ تُجرد قُلوبهَم من كُلِ ما كانَ حُباً ليظَهرَ النفاق على أصُولهِ ، كما جُردت من كَافَةِ سَتائركَ..

نَعم أنتَ تَرتجف أمَامَ الأعين الشَاغرة بالحقد ، و تَخنُقكَ الذَاكرة التي أشبعتها حُباً للنَاس ، و أينَ هُم أولئكَ الذينَ كُنتَ تُسند إخَلاصكَ على جذعِ صداقاتهم !! ..

أينَ هُم ! ، و من هُم ؟ ..

هُم الذينَ ولدتَ معهُم ، و اتخذتَ مقاساً على قَدرِ أحلامهِم ، و جَعلت مُستَقبلكَ بنجاحهِ و فَشلهِ و سَعادته و بُؤسهِ مُعلقاً بألسنتهم ، نَسيت نفسكَ المسكينة و جَريتَ خَلفَ إرضَائهم ، و لو أنفقَت ما في الأرضِ ذهباً ما أرضَيتهُم و لا رَضوا عنكَ و لا أسعدتهُم ، مَحدودَ الفكرِ أنتَ فَقط من أجلِ سَعادتهم ، و أنتَ الوَحيد في هَذا الهَباء الفَوضوي الذي يُعاني من فُضولهم ..

فُضوليونَ هُم بكُلِ حركاتهم ، و إن سَألتَ أحداً منهُم إلى أينَ أنتَ ذَاهب يَا صَاح !! .. سَوفَ يَسل وَقاحتهُ أمَامَ أشنَاف سمعكَ و يُجيبُكَ : و أنت ما شَأنك !! ..

سَوفَ أقول لَكَ مَا شَأنكَ ، شَأنك بأنكَ أنتَ النَكرة بَينهَم ، شأنكَ بأنَ جَميع من حولكَ ينتظرُ سُقوطَكَ ..

و مَا شأنك !! ..

دائماً الطيبون ..

مُروضون على الصمتِ !! ..

أولئكَ المزاجيونَ الذين يحتَفظونَ بأطباعهم لأنفُسهم ، فيهم من الأسرار الفَاضحة ما يَسدُ رَمقَ السر بحدِ ذَاتهِ ..

ـ رُوت أول ما فقدت يا بُني ..

قُيدت بالسَلاسل من قَدميها و معصَميهَا ، أذكرُ بأنَني إشتَريتُ لهَا سواراً شَرقياً إشتريته عندما كُنتُ أُسَافرُ من أجل تجِارة ما ، كَانَت هَدية عَيد ميلادهَا ، لَقد سُرت يَومهَا بهذهِ الهَدية ، هل تَعلم كم عُمرهُا !

ـ عُمر هذا السوار مَا يُقارب عشرونَ عَاماً بالضَبط !! ..

لم أرهَا خَلعت هذا السوار أبداً ، و عندَمَا سَألهَا أحد الأبنَاء لمَاذَا لا تَخلعي هَذا السوار كَانت تَقول :

ـ إنَ رَوابط الحُب البسيطة لا تُخلع لأنهَا جُزء منَ الذَاكرة ..

أيُعَقل أنَها خَلعت الذَاكرة عندمَا أمروهَا بخَلع ثيابها ! ، كُنتُ أعتَقد أن يُدفن معها هَذا السوار ، و لكن لا أعرف من كَانَ مُبادراً بالخَيانة ، هيَ أم السوار أم جلادهَا !! ..

كَانت جَميع المشاهد مُحتملة ، إلا مَشهد وَاحد فقط ، ألا و هُوَ السُؤال الذي رَاودني ، هَل أنَا مشَغول بالسوار أم بصاحبته ..

إنَها خيانة الأمَانة ، و المُعتقداتِ التي نَرمي بهَا في حَال خَوفنَا من أمرٍ مَا ، جميع البَشرية تَعود إلى فطرتهَا بمُجرد مواجهة أية خَوف مَا ..

حَتى المَلاحدة يلجأونَ إلى الله في حَال وقوعهم في مُصَابٍ مَا ، و لكن هَل كَانَ السوار خارج عن فطرتهَا ، ألم تَقُل بأنَ الأشَياء التي نُحبُهَا هي جُزء من الذَاكرة ، و هَل يُعقل خَلعت ذَاكرتهَا أيضَاً ..

لا أعتقد ذلكَ ، إنها رُوت يا بُني ..

لَقد حُمِّل جميع من كَانَ معها في قَفصٍ لا يَقي برد و لا قَارص تلكَ الليلة ، و كَان القَفص عبارة عن قَاطرة لسيارة شَحنٍ ضَخمة، إنهُ المشَهد الأخير لها هُنا في هَذهِ العَاصمة ، مَشهد كُحلَ الليل ، و إختفاء ضوء القَمر ، هَل يَا تُرى كَانت بدَر و أنَا لا أعلم !!

إنَ البَدر قفصه هَذا الفَضاء الرَحب المحموم بالنُجوم ، و أمَا بدري كَانَ عَارٍ و مُكَبل و مَسحوب منهُ كرامتهُ ، مَاذا تُراكَ فَاعل وَسَط هَذا الخَراب !! ..

و حَملت الأقفاصُ الكُتل اللحمية إلى المَجهول .. كَانت كلابهُم المُروضَة على الكَراهية مثلهُم بالضَبطِ ، قَد رَضَعت من الشَراسة و الهيمنة مَا يجعلُكَ تُنصفُ بقيةَ الحَيوانَات و تَتهم مُروضيهَا على الشَراسة و الإفتراس ..

كَانَ نباح الكلاب ليلتهَا قَد وَصَل إلى مَسَامعِ كُلِ بَيتٍ في فيينَا .. و لَكن صَوتَ الضَمائر كَانت نَائمة بجانبهم ، و لهَا روائح الغدر و الخيانة ..

جميع من حَولنَا من أحبة كُنا قَد وثقنا بهم ولكنهم قد أبرموا صفقة غدرٍ مع الجُنود النازيين ، و أصدقائي و أحبائي و جُلاسي و حتى عُمالي و أيضاً من لي دين عليهم و من كُنتُ أتصَدق عَليهم و أشَياء خَفية يَستثقل لسَاني ذكرهم ..

بعد أن عرفتُ بإلقاء القَبضِ على رُوت جُنّ جُنوني ، و لو نَطقت أرصفة فيينَا و أزقتهَا لحاكت للتاريخِ وَجعَ رجل أحياهُ الحُب و أفناهُ الوَجع ، إنهُ وَجع رُوت رفيقة الدَرب يا بُني ..

ـ سَيدي الحَاخام ، هل كَان لدَيكَ علاقات مع رجَال الدَولة الجَديدة في هَذه البَلد !! ..

ـ كَان لي علاقة جيدة مع الله .. و لكن !! ..

صَمتَ الرَجُل ، و حَسبتُ بأنهُ سَوف يُجيبني :

ـ و لَكن ماذا سيدي الحَاخام !! ..

ـ بُني كُنتُ دَائمَاً أعتَقد بأنَ الذي جَمعَ هَؤلاء الناس هي محبة الله ، و لا زلتُ أعتقد ذلك ، و لكن لطَالما كُنتُ واثقاً من إرادة الله طيلةَ

حَياتي ، لمَاذا إلى الآن لم يُنجنَا من هَذهِ الكَارثة الغَير إنسَانية !! ، بُني أرجوك لا تَكتُب هَذا الكَلام و لا تَنشرهُ ..

ـ لمَاذا سَيدي !! ..

ـ نَحنُ بني البشَر مَهما إمتلكنَا من القُوة و الشَجاعة باللسانِ أو بالموارِدِ أو حتى بِالجُيوش فَإنَ أشباحنَا الدَاخيلة دَائماً تأتينا بين كُل فَينة و فَينة و تَقول لنَا أنتم لستم فقط مخلوقين من لحَمٍ وَدم ، و أيضاً من قُوة و ضَعف و شَجَاعة و خَوف ..

أنَا بصفتي إنسَان كان مُربٍّ لجيلٍ كُنتُ أعتقد بِأنهُ سَوف يُدافع بفكرهِ عن قَضية الحُب ، أخَافُهُم و أخاف ممن حَولي من بَشرٍ و حتى حجر ، فقط لأنَني إنسَان ..

تسعون بالمئة من أحَلامنا التي من الممكن أن نصنعها تَخلينَا عنها رُغماً عن أُنوفنا ، ليسَ من أجلنَا بل من أجلِ من حولنا من بشرٍ ..

هَل تَعرف لمَاذَا نَخافُ أن نُحقق تلكَ الأحلام !! ..

ـ أتمنى أن أعرفَ منكَ سِيدي ..

ـ يا بُني إنهُ الخَوف من المَاضي ، و المُستقبل ، و الحَاضر ، و الناس ، و حَتى من هذا الكَوكب ، و أيضاً ما قبل الموت و ما بَعد الموت .. إنَ أحلامنا كَسلة خُيوط مُتَشابكة و مُتعَاقدة مَع بَعضهَا البَعض ..

ـ هَل هُناك حَل لهَذهِ المُعضلة يَا سيدي !! ..

ـ نَعم يا بُني ، لا يُوجد على هَذا الكَوكب من مُعضلة إلا و لهَا حَل، إنَ العَالم كُلَ يَوم يتقدم بكُل المَجالات ، و الاكتشَافات تَتواكب علينَا من أشَخاصٍ حكموا لُغة العَقل و ابتعدوا عن ثُرهَات البَشَر و قَضَاياهم الغير معقولة و التي لا يُوجد لهَا حَل ، نَحنُ نَعيش بأزمة تشبث بالرأي ألا و هي فتن التَعصُب و الثبات على عقليته ، إن هذه العُقول المَسدودة بفلينة قارورة لو شَققت عليهَا و شاهدتَ ما يَجولُ في باطنهَا لبُلت على هَذه العُقول التي استفحلَ بهَا العَفن و الثَبات على الباطل ..

أنَا أشكُر الرب على عَطَاء العَقلِ و المنطقِ ..

لأنَ هَذهِ القلة القليلة التي عُنيت بالاكتشافات و التطورِ أصَابهَا وحدة حَالٍ مع تَطور التركيبة الفيزيائية للأرض ..

ـ سَيدي الحاخام أراكَ مُهتم بالفيزياء !! ..

هَا هَا هَا .. و أخيراً ضَحك الحاخام :

ـ بُني أنت صَحفي يَجب عَليك أن لا تسَأل هَذا السُؤال ، عَليكَ أن تَعرف بأنَ أسَاس هَذا التَكوين هُوَ الذرة و هَذهِ الذَرة فيهَا من الخَفايا ما لا يَعرفهُ أحد ..

و لكن نَحنُ ضَحايا جَهل ، و إعمال العَقل بالفكر و العلم سَوف يجعلُنا نتخلى عن قَضَايانا التافهة التي نتصَارعُ عَليها ..

نَحنُ ضحايا جَهل ..

العِبارة التي أوصلتني إلى مُنعطفِ التدبُرِ في مَا يَتلفَظهُ هَذا الرَجُل المُسن بالحكمة و الحنكة و لُغة المَنطق و العَقل ..

أيُعقل مَا يَجري على أرضِ أوروبا في قَرننا العشرين أهُو الجَهل!..

ـ بُني لا تَذهب بَعيداً ، أجمل مَا قَرأتُ لهُم هُم ما يُسمونَ أنفُسهُم عُلماء التنوير ، و لو كُنت شَاباً لاتَبعتُهم ، و لكن من العَيب أن أخلع فكري و أجري إليهم و أنَا بهَذا السِنِ من الوَجع ، و إذا لاحَظت كَلامي و دَققت جيداً لوجدتني عُدتُ إلى مَا يُريدهُ الناس مني و ليسَ العَكس ..

هُم يُريدُونَ مني أن أكون صنفاً من أصنافهم أو أقل شَأناً منهُم ، نُحنُ لن نتَخلى عن نَزعاتنا بحُبِ العَظمة حتى و لو كنت مُحتقراً من قبلِ من حَولك ، فَهذهِ النَزعة سُوفَ تُراودكَ حُلماً و خَيالاً ..

إنَ هَذا الظُلم الذي يُحيطُ بنَا من أصحَابِ فكرٍ نَازي هُم صُنعنا نَحنُ .. نعم نَحنُ ..

نَحنُ الذينَ صنعانهُم ، عندما أُسندَ الأمر إلى غَيرِ أهلهِ و ضَيعنا الأمَانة و استَفحل بنا الغدر و الخَيانة و قَدمنا مَصالحنَا على إنسَانيتنا و نَهجنا عَقائد هي أقرب إلى الخَيال ، قَدمنَا نُصوص

الماضي على الواقع ، و حَسبنَا بأنَ جميع ما أُنزل هُوَ الذي يَصلحُ لكُلِ مَكَانٍ و زمَان ، فَجميع القَتلة حَولَ النُصوص حَرفوهَا رغبة لمصَالحهم و إشَعال الحُروب بينَ المُنهزمين ذَاتياً الذين لم يفهموا من النَصِ سوى أن الحق لهُم و غَيرهُم هُم عُصاة و مُعتدون ..

يَبدأ الإعتداء عندما نَنحسر في قَعرِ المنهج الغَير تَقبلي ، إنهُم أُنَاس لا يَقبلون غَيرهُم أبداً ، فمنهجهُم إمَا هُم و إمَا لا أحد غيرهم ، إنها كَارثَة البشرية ..

بُني العَزِيز ..

أنتَ مُقبل على الحَياة ، و لا زلتَ غظاً طرياً و لم تُشَاهد من قَساوتهَا سوى طَريقُكَ الذي قَطعتهُ من لُندُن إلى فيينَا ، و كم أتمنى أن أعود ذَاكَ الفَتى الذِي كَان يُزاويكَ سناً ، و لَكن الذي فاتَ مَات، و لم نَشعر بِالعُمر إلا بَعد فَوات الأوان ، و لم أكتَسب من هَذهِ الدُنيا سوى الحُب ..

و أنَا بهَذا السن يَا بُني لا أستَطيع خَلع الذَاكرة ، لأَنَني سَوفَ أموتُ من صَقيع الوحدة ، إنَ ذَاكرتي مُمتَلئة بهم بزوجتي رُوت و أبنَائي الأحباء ، هَؤلاء فقط من كُنتُ أشعُر معهُم بالسَعادة ..

ـ سَيدي الحَاخام يُراودُني سُؤال !! ..

ـ تَفضَل بُني ..

ـ هَل أعطيتَ الحُرية لأبنَائكَ و إبداء الحُرية باتخَاذِ قَرارَاتهم و أفكَارهم و مُعتقداتهم !! ..

إبتسَم السَيد الحاخام و لَكن كانت إبتسَامتهُ مَصحوب معهَا سَعلة جافة تَخرجُ من صَدرهِ ، في الحَقيقة لَقد خُفت عَليهِ من المرض ، لا أعلم لماذَا رَق قلبي لهُ إلى هَذا الحَد من الرَحمة ! :

ـ صَدقني يا بُني بأنَني تَلقيتُ الكَثير من التَهديدات من الحاخامات و رجال الدين لأنَني أعطيتُ هَذا الكم الغير منطقي لأبنَائي ، و عندما طُلبتُ إلى الحَاخَام الأكبر الذي تُوفي قَبل عشر سَنواتٍ و سَألني مَا الذي يَحُدث لأبنَائي و مَا هَذا الجُنون الذي حَل بهم ! ، و هَل لي نَصيب في إعطَائهم الحُرية في إبداء الرأي و نشر الفكر التَنويري بينَ أفراد اليهود ! ، قُلتُ لهُ يومها :

سَيدي الحَاخَام الأعظم كما تَرى بأنَنَا مُقبلونَ على عَصرٍ تتنافسُ بهِ الأمَم لتُصدر مُبدعيهَا و مُفكريهَا ، و هَذا الزمانُ ليسَ بزمننا و هَذهِ الأمكنة و الفَواصل الفَاصلة بيننا و بَينهم هي لهُم ، لأنَ مُهمتنا تنتهي عند حُرية الآخَرين ..

و كمَا تَعلم يَا بُني إن رَجَال الدين بكَافَةِ مُعتقداتهم إذا وَصلوا إلى مَنصبٍ ديني و سنٍ مُعين من الهَرم فَعقولُه قَد تُكون أقسى من الصُخور !! .. كَان يَستمع إليَّ ذَاكَ الحَاخام بضَجرٍ و مللٍ و لكنَ

مكانتهُ هي التي ضَبتتهُ و لو أنهُ لم يُضَغط عَليهِ من قبل لَفيف الأحبار الذين من حَوله لمَا طالبني و نَاقشني ، و بعد تَفصيل و شرح و إخراج أولادي من دَائرة الإتهام ، تَنحنحَ الحاخام الأعظم و قَال لي :

سَيد بنيامين كَما تَعلم بأنَ لكَ مَكانة كَبيرة هُنا في دَارِ الرب ، و لَك بَصمات عَظيمة هُنَا ، و لا أريد أن أخسَركَ بَسببِ علمكَ و مكانتكَ الإجتماعية بينَ أبنَاء فيينَا ، فَعليكَ أن تضبط أولادكَ قَدرَ الإمكان ، و إن لم تُقوّم سُلوكَهُم الفكري سوف نتخذ إجراءاتٍ تُحيلُكَ إلى التَقاعد من مَجمع الأحبار ..

صَدقني يا بُني بأنَني لم أتأثر بكَلامهِ و لم تَستوقفني تهديداته ، و لكن سُررتُ لأنَ أولادي خَرجوا من قَوقعةِ التَوريث الديني الذي نُرضعُهُ لأولادنا رغماً عن أنفهم ، تَركتُ أولادي لمصيرهم و لأفكَارهم و حتى لمُعتقداتهم ، و كنا في نقاشٍ جَميل كُل يَوم حَول طاولة الفكر ، فَصدقني يا بُني بدل أن أُعلمهُم كُنتُ أتعلم منهُم ، فمَا أجمل أن تَرى أولادكَ يفوقونكَ فكراً و عقلاً و مَنطقاً ..

كَانت نقاشَات الفكر التنويري لا تَنتهي في المَنزل حتى أضَحت رُفوف مكتبتنا البيتية مَحشوة بالكُتُب العلمية التي تُخاطبُ الفكرو

المنطق كالفلسَفة و المَنظق و الفيزياء و عُلوم الطاقة و حتى اللإلحاد ..

لم أرمِ كتاباً و لم أمنعهُم من عدمِ الخَوض بهِ ، فَلقد كَانوا أذَكياء جداً و في أغلبِ الأحيان لا أستَطيع مجاريتهم في المدلولات المَنطقية ..

ـ سَيدي الحَاخَام ! ، هَل نَدمتَ لأنَك أعطيتَهم ما كُنتَ تَتمناهُ !!؟ ..

ـ لا يا بُني ، بل نَدمتُ لأنَني لم أُعطهم مساحة أكبر من أجل أن يتحرروا أكثر من الطباع الوراثي الذِي ألجم العَالم بالغباء و الإنحطاط الثقافي ..

يا بُني لقد كذب من قَال : التاريخ يُعيد نفسهُ !! ..

إنَ الذي ذهَب لن يعود ، إلا هَذهِ الأرض فَهي ثَابتة رُغم تَبدُل النَاس عَليهَا ، فَقط هُنَاك شُرور تَأتينَا في كُلِ عَصرٍ من العُصور هي أشَدُ فَتكاً و تَنكيلاً من سَابقَاتهَا ، فَلقد كَانت الحُروب تُقام على سلاح السُيوفِ و الرمَاحِ و المنجليق ، و اليوم تَطور الوضع بقنبلة واحدة فقط و في أقل من دَقائق و بكبسة زرٍ واحدة سَوفُ تُحيل قَارة بأكملهَا إلى الفناءِ هي و من فيهَا من بشرٍ ..

هُوَ العَقل يَا صَديقي ..

فقط الذي لم يترك للباحثين عن الحَقِ و العلم صديقاً ، لن نَقلق طَالما هُنَا صَحوات علمية تَصبُ في مَصلحةِ البَشرية و تَسهيل الحياة عَليهم ..

ـ و ماذا أيضاً عن بَقية العَائلة يا سيدي ! ، هَل هُم هُنا أم حَدث معهُم كما حَدث مع غيرهم !!

ـ آآآآآه يا بُني ، لَقد قُلتُ لكَ نَحنُ ضحية ذَاكرة ، لم يَنتظر أولادي قدومي من مَدينة لينز ، فَبعد أن اختَفت أُمهُم و سُحبت إلى أحدِ مُعسكراتِ الموت ، لم يناموا ليلتها ، و ذَهبوا إلى أحد الضُباطِ يُطالبونَ بها بطَريقة همجية ، أمرَ ذلكَ الضَابط باعتقالهم و الذِي أوصل لي الخبر هُو شخص يعمل في تلكَ الثكنة النازية ، فَجردوا من ثيابهم و سيقوا إلى منَطقة مجهولة ..

ـ و مَاذا أيضَاً يا سَيدي !! ..

ـ إنتَهت الحَياة يَا بُني بالنسبة لي ، و بدأتُ أُفتشُ عن ضَابطٍ فاسد، فأنَا في مُعتَقدي ما بُني على باطل فَهو بَاطل ، هُؤلاء القَادمونَ من جُحورِ الفَساد هُم أفسد ما رَأيت ، و عندما وَجدتُ أحد رُؤوساء هَذه العصابة ، طَلب مني جَميع ثروتي مَنقولة و غَير منقولة ، و خلال شَهر سَوف يُعيدَ لي جَميع أفراد عَائلتي ، نعم سلمتُه جَميع

الأموال و بعتُ جميع المُمتلكات .. و بعد أكثر من شَهر كَامل و أنَا أنَام في أحدِ المعابد عُدتُ إليهِ حَتى أعرف ما الذِي جَرى و مَا سَبب هَذا التَأخير و لكنهُ طَردني و قَال لي :

ـ أُخرج من مَكتبي قَبل أن آمر بسحبكَ إلى أحدِ مُعسكَرات الموتِ..

يا بُني لقد خَسرت كُلَ شيء ..

نَعم خَانهُ جميع من حوله من بنَي البَشر و لكن لم تَخنهُ فيينَا و لا أزقتهَا و لا حمامهَا ..

هُوَ الواقف بَين الفَواصل المَائجة كَالسراب ..

إلى أين يا سَيدي !! ..

إلى الله ..

ـ بُني اسقني كَأساً من المَاء إذا سَمحت !! ..

ـ بكُلِ سُرور سيدي ..

خَرجتُ لأُحضر لهُ الماء ، و عُدتُ بسُرعة ، و لكن كَانَ نَائماً على الأريكة ، وَضَعتُ كُوب الماء على الطَاولة و بدأتُ أُوقظهُ من أجل أن يشَرب و يَستلقي على سَريرهِ :

ـ سَيدي استَيقظ لقد أحضَرتُ لكَ الماء .. سيدي !!

فَاضَت رُوحهُ إلى السمَاء إنهُ المَوت الذي لا مَفر منهُ عَاشَ بنيامين على سُقيا الحُب ، و مَات مُعلقاً على مشانق الشَوق ، و هُزت المدينة بموته ، و لكن لم يَخرُج في جنازتهِ أحد إلا قلة قَليلة من الغُرباء و الضعاف ..

لقد أمرَ النازيون دَفنهُ خَارج المدينة ، على حَافة جَبل كالنبيرك طَوى الجسد تَعبهُ و وُضع على شَاهدة قبره :

أحياني الحُب ، و قَتلني الشَوق ..

أتمَمتُ رِواية:

بنيامين

في بَلَدِ الحُرِية و الدِيمُقرَاطِية : النَمسا ، في عَاصِمَةِ البيانو والكَمنجَة : فيينا ،

في مَقهى J.Hornig قبل غُروب الحُب ..

السَاعة : 00 : 03 ، قَبل غُروبِ أن يَنامَ الحَنان ..

مِن تَارِيخ : 14 / يناير / 2018